مع تحياتي : علي مولا

وجدانيات

أسامة أنور عكاشة

همس البحر







إهـــــــداء

إلـــى ... ...

«بنيلـــوبى» ... حـــوريـــة الليـــل الجالســـة

فى شـــرفة صـــيفية تغـــزل وتنتظـــــر ...

شـــروق الفجـــر فى حضـــن البحـــر ...



تقديم

معك ـ عزيزى القارئ ـ أواصل رحلة الوجدان ... أكشف لك فيها عن مشاعرى ... تلك التى تدب تحت الجلد بعيداً عن واقعية « الوعى » .. تنمو وتزهر فى منطقة من النفس لم تكتشف وتبدو كلما خطونا فيها أشبه بالمدن المسحورة .. تحرسها الألغاز والطلاسم ...

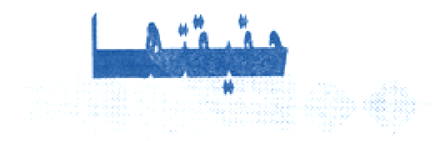
فالنفس البشرية مثلها مثل « طيبة » القديمة وقد أوصد أبو الهول أبوابها فى وجه « أوديب » لا يسمح له بالولوج إلا أن يجيب على السؤال « اللغز » .

لكن لغز أبى الهول أسهل كثيراً وأيسر مقالاً من ألغازنا المستترة فى أعماق العقل الباطن ...

إذاً فلا أطمع فى أكثر من محاولة اقتراب ... دقات خجلى على الأبواب المغلقة لعلها تلقى صدى على الجانب الآخر ... فتوقظ بعضاً من الأسرار الهاجعة هناك فتوارب الباب لينفذ منه خيط من نور ...

وقديما قال سقراط جملته الجامعة المانعة ... جملة هى الحكمة بعينها ... « اعرف نفسك » ... وما أشقها من رحلة للمعرفة ... وما أجدرها بالمحاولة ....

أسامة أنور عكاشة



حقيقتها

لم يرها أبداً كما رأوها! . .

. . . سمع همساتهم . . . لمح نظراتهم . . . ودائماً كان يبتسم! . . .

أسرّ له صديقه فى أذنه :

- الحب أعمى! . .

كان يعرف معنى ما يقال عن عمى الحب! . . أن ترى فقط الوجه المضىء للقمر وتغلق عينيك عن وجهه الآخر . . . وترفض حتى أن تنظر للوجه المضىء من خلال منظار مقرب يريك التلال المستوية الجرداء والبثور المتناثرة على السطح الخادع . . .

همس يرد على صاحبه :

- لم يعرفها أحد منكم مثلما عرفتها! . . . وما ترونه فيها هى الملامح التى تحب هى أن تروها فيها أرادت دائماً أن تحمى نفسها

من اقتحامات الآخرين وكانت تعرف أن الحقيقة تبدو فى الضوء كالتماعات السراب وأن العيون ليست إلا مرايا الظنون وأنكم لن تصدقوا ما يبدو واضحاً فآثرت أن تضع قناعاً يشغفكم أن تروا فيه ترديداً لأوهامكم!

. . . لاحت على وجه الآخر ابتسامة باهتة وغمغم فى فتور . .

ـ ولم لايكون القناع هو ما تواجهك به؟ . . .

ـ لأنى أبداً لم أنظر إليه من خلال وجهها! . . من لحظة اللقاء الأول تسللت المشاعر جسراً إلى الأعماق . . . وهناك فاجأ كل منا صاحبه متجرداً لايستتر ولايتخفى ولايتحمل فى انتظار لقاء . . . كانت اللحظة البكر التى تولد من رحم الصدفة دون أن تتخلق قبلها جنينا . . . وأنبت الميلاد طفلاً قد رضع الحقيقة غفلاً ولم يعد فى حاجة للبحث عنها فى عيون الآخرين . . .

. . . بنظرة طويلة كابيه احاطه صديقه . . . ولم يتكلم . . .

وكانت النظرة تلك أشبه بنصل حاد ينغرس فى لحم الكيان الذى رسخ فى الأعماق . .

. . . كانت تمتلئ حزنا وإشفاقاً أصاباه بهلع خفى . . .

ـ لاتنظر لى هكذا . . . فقط تكلم! . .

ـ ماذا تريدنى أن أقول وكلماتى تصنع الدوامات فى بحيرة سكونك وسلامك؟

أنت يا صديقى تتكلم وقد وضعت أصابعك فى أذنيك وأغمضت عينيك . . . وتطلب منى أن أتكلم . . . ربما فقط

لأعطيك جسراً تعبر عليه إلى شاطئ أمنك الموهوم فأبق على ما تريد ودعك مما نقول!

هم الصديق بالانصراف فأمسك بيده وكأنه يقبض على جمرات مشتعلة!

ـ لن تمضى قبل أن تلقى بكل ما فى جعبتك! . .

ـ وما يضيرك فى أن أستبقى لنفسى حديثاً تراه لغواً؟ . . وما قيمة أن أرسم لك صورة لاتصدقها وتراها قناعاً تخفى الحقيقة؟ . .

ـ دعنى فقط أسمع! . .

ـ بل دعنى أنت لشأنى! . . . وأقسم أن لا أحدثك بكلمة فى هذا الأمر . .

. . . ومضى الرجل . . . وتركه . . .

تركه غير ما كان . . .

وجاءت هى . . . تخطر كالظبى . . . وفى عينيها تبرق آلاف النجوم . . . وابتسامة حب حانية تشرق من ثناياها . . . همست بكلمة عن شوق مخبوء . . .

وصاح هو بها . . . انزعى القناع! . .

. . . فى اللحظه ماتت كل الأشياء .

كلمات من دفتر قديم :

نفقد الإحساس بالجمال إذا
خلت حياتنا من القبح . . . فطوبى
لصانعى القبح لأنهم يؤكدون قيمة الجمال
«ماتيو أرنولد»

ذات صباح

أذكر أنى ذات صباح كنت وحيداً! . .

شمسى لم تشرق ذاك اليوم . . . كان الغيم يدثر جسد الكون! . . ونثار المطر يرصع نافذتى . .

وهمست لنفسى . . . شىء ما قد يحدث بعد هنيهة . . .

أدفأت يدى بقدح المشروب الساخن . . . ونظرت عبر زجاج الشرفة نحو البحر . . . فاجأنى صمت الأمواج . . . بل موت الأمواج . . .

لم تترامى فوق الشط غلالة موج . . . لم يخفق صدر الماء . . . تقزم ذاك العملاق الأزرق . . . صار بحيرة . . . صار بساطاً من زيت! . . .

رددت لنفسى أن سكوناً يسبق صخب الأنواء . . . فى ركن من أركان العين يلمع ضوء ثم يغيب . . . كفنار مهجور بجزيرة أشباح منسية . . .

أشعر أن اليوم غريب! . . وأن اللحظة حبلى . . .

يشتعل فضولى . . أصلب عينيى هناك . . . عند المفترق الصخرى . . . شىء ما قد يحدث بعد هنيهة ! . . .

كنت قديما أعشق غضب البحر . . . لكنى اليوم أخاف . . .

أشعر بدبيب الزمن اللص! . .

خطوات تتلصص خلف الباب . . أنفاس تتردد من ثقب المفتاح . . .

هل كان الموعد ذاك اليوم . . . ذات صباح؟ . .

فى الليل السابق أشعلت المصباح . . ألقيت الأخشاب بجوف النار . . وفتحت كتابى . . .

هل أقرأ . . . أم أكتب . . . أم أنتظر الكلمات؟ . . . .

أجابتنى تلك الزهرة بين الصفحات . . .

أوراق الوردة قد ذبلت . . . طبعت قبلتها بين سطور العمر الراكض . . .

مازال العطر حروفاً تنطق بالآهات . . .

ورسالة حب مطوية . . . تجعد طرفاها بدموع فراق . .

ورويت القصة لأشباح تتراقص فى لهب النار . . .

شاركنى الفجر الضيف بكل الأسرار . . . أو سدنى دفئاً مختزناً من صيف حار . . .

ألقيت برأسى فوق ذراع الساعات . . . حتى أيقظنى حلم مبتور المعنى . . ذات صباح . . .

لم أسمع طرق الباب . . . شىء ما قد حدث هناك منذ هنيهة . . .

صوت نباح! . . .

كان الجرو الأعجف يعلن قرب اللحظة . .

دقات ثم صياح . . .

صوت الرجل المعهود . . .

ألقيت القدح الساخن . . . وفتحت الباب . . .

أعطانى رسالة . . .

فضضت غلافاً أزرق . . . نفس العطر يعربد . . .

لكن الورقة بيضاء . . . لاتحوى كلمة . . .

لم أحزن . . . يكفى أن هناك من تجلس مثلى . . . تتذكر . . .

ذات صباح . . .

كلمات من دفتر قديم :

المرأة تكره الرجل الكذاب

خاصة إذا أقسم لها أنه يصدقها

«جورج برناردشو»

مهاجر!

. . . أشاح بنظرة إلى عتمة الرماد فى الأفق . . . وخرج صوته كسيراً مهزوماً :

ـ هاجرت إليك . . . من أجلك تركت مدينتى القديمة . . . والآن . . .

ـ والآن . . . تهاجر عنى وتترك مدينتى . . . وتنزل رايتك من صارى حياتى! . .

ـ تعرفين أنى أفعل هذا من أجلك بعد أن اكتشفت أننى استبدلت حقوق الغازى بحقوق المهاجر . . .

. . . عاش الحلم قصيراً . . . يمزقه الصراع! . . .

يوم خطى إلى تخومها . . . هناك . . . ذات ليلة أنجبتها الصدفة من رحم اللا توقع! . . .

كانت الخطوة الأولى تنتشى برحيق زهرة صيف تتضوع بعبير الأمل الأخير . . .

وكان الظمأ يحرق جوفه . . . فترك نفسه للنبع يرشف منه اكسيراً للنسيان . .

نسى كل ما خلفه فى مدينته القديمة وتشاغل عن كل الخيوط التى تربطه إليها . . .

اختار أن يعيش اللحظة مهاجراً . . . وأرادها أن تهاجر معه . . .

رسم أمام عينيها صورة الأرض الموعودة . . . هناك . . . حيث تتبرعم زنابق الحقول البكر . . . وتقتلع أعشاب الماضى لتلقى فى الهباء . . .

ما كان يفصلهما عن الفردوس غير خطوط الطول . . .

الزمن غير الزمن . . . والرحلة تخترق البعد الرابع على متن سفينة الأشباح . . .

وخط الوهم يتأرجح فى الأفق على مرمى حجر . . . على مرمى كلمة . . .

والكلمة شفرة سكين حاد . . . يقطر منها الدم . . .

كان تثمل من قطرات الحلم . . . وتترع كأساً مثقوبة . . .

وحين تردد فى ركوب الزورق قفزت هى إلى الشاطئ . . .

مدت يدها تدعوه . . .

جذبته خيوط الأمس إلى مدينته القديمة . . .

أحاط جبينه أكليل الشوك ورفع إليها منديلاً بلله الدمع . . .

محرمة بيضاء . . . تعلن الاستسلام . . .

شرطة أرض الهجرة لاتتسامح . . . وجيوبه لاتحوى صك عبور . . .

ـ تتركنى فى وطن الغربة وتعود للمدن المهجورة؟ . . .

ـ لست أنا هذا العائد! . . العائد بعض حطام . . . مابقى من الأشلاء . .

كانت تلك القطرات الحمراء تنزف . . . تتساقط فى المضمار . . .

والفرس الجامح تخسر كل الأشواط . . .

وتلوح هزيمة عمر مازال يعيش . . .

والرأس المطرقة على صدر اللحظة . . . تثقل . . . تتحجر . . . تتحول مسخاً . . .

وديار الهجرة تتباعد . . . تتمزق . . .

ما عادت غير سحابات فى صيف حار . . .

تتبخر عدماً فى الأرجاء . . .

لاتسقط حتى قطرة ماء . . . تروى غلة من هاجر بحثاً عن نبع . . . والنبع سراب!

كلمات من دفتر قديم :

أعطنى عصا ونقطة ارتكاز

أحرك لك الأرض كما أشاء

«أرشميدس»

طفـــل

غضبت حتى احمر وجهها واختفت عيناها . . . أما هو فقد علت وجهه ابتسامة! . .

التفتت إليه تكاد تشتعل فى وجهه . . .

ـ كيف تتركهم يفعلون بك هذا؟! . .

اكفهر قليلا رغم ابتسامته التى مازالت معلقة . . . لم يفعلوا شيئا . . . هم فقط يمزحون . . .

ـ المزاح البرىء لايمس الكرامة! . لقد سخروا منك! . .

ـ لاتحملى الأمور أكثر مما تحتمل . . . إنهم أصدقاء قدامى! . .

ـ منذ متى تصادقهم؟ . .

ـ منذ كنا زملاء فى مرحلة الدراسة الابتدائية! . .

ـ وطوال هذه السنوات يمازحونك بهذه الطريقة؟! . .

ـ كنا نضحك دائماً . . .

قالها وقد تلاشت ابتسامته وبدت عليه حيرة سابغة! . . نظرت إليه طويلاً وقد انفطر قلبها . . ثم همست بلهجة أقل حدة . . .

ـ ولماذا لاتعاملهم بالمثل؟ . . لماذا لاتسخر منهم كما يفعلون بك . .

ـ لا أعرف! . . . حاولت ذات مرة فسخروا منى أكثر وضحكوا طويلاً . . . ربما تعدوا الحدود يومها!

ـ وماذا فعلت؟ . .

ـ غضبت منهم! . .

ثم استطرد وكأنه قد وجد أخيراً الحجة التى يبحث عنها :

ـ تعرفين؟ لقد تركتهم يومها بعد أن صارحتهم بأنى سأقاطعهم! وغبت عنهم أياماً لكنهم لم يتحملوا . . فسعوا إلى ورجونى أن أصفح عنهم . . .

هزت رأسها بيأس وغمغمت : وطبعاً منحتهم الصفح؟ . .

ـ هل جربت يوماً متعة الصفح؟ . . لقد طفرت دموعى تأثرا . . .

صمتت طويلاً وقد عقدت حاجبيها وغرقت نظراتها فى الأفق الغائم . . . كانت تعرف أنه رجل طيب بكل ما فى المعنى الشائع للكلمة . . . ولكن . . . هاهى تراه وسط أصدقائه وقد اتخذوه مادة لهذرهم وسخافاتهم . . . وراح كل منهم يتفنن مبارياً الآخرين فى ابتداع لون من ألوان السخرية ليضجوا جميعاً بضحك ماجن وبتعليقات تتمحور كلها حول سذاجته وغفلته . . .

والمشكلة أنها تحبه! . .

أحبته منذ اللحظة الأولى . . . وأدهشت كل صديقاتها . . «ماذا جرى لعقلك؟» .



وهى لاتستطيع أن تكف عن حبه ولا أن تهجره . . . فقد أصبح بالنسبة لها التحدى الأكبر والرهان الذى يجب أن تربحه . . .

وفى يوم . . اجتمعوا حوله . . . واستفزه أحدهم بأنه لو استطاع أن يتسلق الشجرة القصيرة ويجلس فوقها فسيتوجونه ملكاً . . . ويمثلون دور رعاياه وله أن يأمرهم بكل مايريد . . .

راقته اللعبة فأسرع رغم تحذيرها - إلى الشجرة يتسلقها . . . وبعد لحظات انفجرت الضحكات كالصراخ . . . لقد كانت الشجرة مليئة بعشوش الزنابير . . . التى انبعثت تهاجمه بكثافة مرعبة . . . وقفت تجأر فى وجوههم صارخة . . . تنعتهم بكل ما أفرزه غضبها من صفات . . . وطأطأوا هم رءوسهم خجلاً . . . والتفتت إليه فوجدته يتحسس أماكن اللدغات وهو يضحك . . . وبعد لحظات سقط مغشياً عليه . . .

وفى المستشفى وهم يداوونه من لدغ الزنابير . .

نظر إلى وجهها المتجهم . . وهمس لها . . .

- لم يتعمدوا . . . أقسموا لى أنهم لم يعرفوا أن الشجرة تأوى هذه الحشرات المخيفة . . ولكن . . أرأيت؟ لم أصرخ . . . تحملت كل اللدغات القاسية وأنا أضحك . . . رأت ذلك الإشعاع المطل من عينيه ولم تملك بدورها إلا أن تضحك .

كلمات من دفتر قديم :

أزف البين وهل كانَ النوى ... ياحبيبى غير أن أغلق باب

مضت الشمس فأمسيت وقد ... أعلنت دونى أبواب السحاب

«إبراهيم ناجى»

قــدر !

لم يكن ما حدث اختياراً!. . فنحن نغمض أعيننا كل ليلة دون أن نختار أحلامنا . . .

الحلم لايباغت فينبه الوعى . . . ولكنه يتسلل فى غفوة . . .

وقد لقيتك حلماً فى غفوه ! . .

لم أعرف ساعتها . . . وكنت قد أوسدت رأسى لصور الليل . . أكان الطارق . . . زائر حلم أم واقع صدفة . . لكنى مددت يدىَ وأسلمت قيادى لفارس الأقدار . . .

لم تكن الرحلة فى الحسبان! . .

لم يكن الموعد منظوراً . . . لم أقرأ خطأ فى كفى . . .

حتى ذاكرتى . . . كانت بعضاً من عيش الماضى . . . تتردد كالأصداء فى يوم عاصف . . لا أعرف إن كانت صوتاً للريح أم عزفاً للأوتار المتطوعة . . .

لم يكن الصوت قريباً . . .

لم أتبين كنه الكلمات ! . .

لم أتذكر عدد السنوات . . . كنت أعيشك فصلاً يجمع كل فصول العام . . .

وأراك . . . ربيعى وشتائى . . . صيفى وخريفى . . . وأحصد فيكى موسم الأشواق المسروقة! . . .

لم يكن عاماً . . . كان عمراً . . . ولد ذات مساء ألفيته رضيعاً خلف الباب . . . أخفيته فى أحضانى فرحاً يشرق بعد غروب الأفراح . . .

لكن الغفوة لاتقهر زمناً! . . .

لاتقوى أن تهزم خطو الوقت ودقات الساعات . . .

يتربص ذاك الحارس فوق التل . . . يرصد كل دروب الحلم . . . يكتب فى سفر .

عنده خط مسار الضوء وأسرار الظلمات .

وحين يحل الموعد يمسك ناقوس الإنذار . . .

قد آن أوان الصحوة! . .

ـ والحلم؟ . . .

ـ يرحل برحيل الغفوة! . .

وتعود الذاكرة المنسية . . .

نرجع ياصاحبتى كبقايا جيش مهزوم! . . .

نلعق كل جراح الوهم . . . نرتشف كل ثمالات الحلم الغفوة .

نشرق بالدمع فقصدى . . . نتسول كسرة حب ملقية بزوايا جدار . . . حتماً يخبرنا الحارس . . أن يرحل كل منا بغير لقاء . . .

يحرمنا حتى نظرات وداع . . .

نركع عند الباب الموصد . . . نتضرع . . نصرخ . . .

ترتد الصرخة . . . ترتطم ببندول حجرى . . . وتدق الساعة . . . فى نفس الميقات . . . الموعد فات . .

والغفوة والحلم الرائع . . . محض سراب! . . .

والعام الماضى؟ . . . والحب؟ . . .

ومواسم صبوتنا المسروقة . . .

ما كانت . . . بل كانت . . .

والفعل بزمن الماضى ليس بفعل . . .

فما كان . . . غالباً لم يكن .

كلمات من دفتر قديم :

الأمل كالإنسان . . . يولد ويعرف

أن مصيره الحتمى هو الموت . . . ومع

ذلك ينسى . . . ويبتسم .

الجريمة .. والعقاب

ـ كانت جريمة! . . .

ـ أن نصدق أنفسنا جريمة؟ . . .

ـ بل الجريمة أن نراوغ أقدارنا! هى لم ترد بنا خيراً . . . فقط أرادت أن تعبث وحين فرضنا عليها جدّنا غضبت وأبت أن تغفر! . .

لو لم تكن تريد العبث . . والعبث وحدة . . . لحققت لقاءنا منذ سنوات . . حين كنت زهرة لم تتفتح . . وكنت أنا مازلت شجاعاً . . . ولكنها ألقتنا . . . كل فى طريق لنسير على الشوك أميالاً تستغرق أجمل سنوات العمر! ثم أدارت كل طريق ليلتقى بالآخر فى الزمن الخطأ! . . فالتقينا حين كان من الخطأ أن نلتقى! . .

التقينا على حافة الطريق . . . وكان يكفى أن يهز أحدنا للآخر رأسه ثم يمضى مواصلاً خط سيره المقدور . . . ولكن هذا لم يكن

ليحقق لأقدارنا متعة اللعب فهى متعة لاتتحقق إلا بمشاهدة الألم واعتصار الجروح حتى آخر قطرات الدم . . .

لهذا لم يكتف أحدنا بإيماءة الرأس وابتسامة اللقاء العابر . . . تسمرت أقدامنا عند نقطة الاصطدام! ومن ركن بعيد لم نره انداح ذاك العطر فسرى فى عروقنا كنشوة مفقودة بردتها السنوات العجاف . . . كان كلانا يتنسم حلمها فى مخيلة الجدب والظمأ . . .

تقاطرت من الندى تلك القطرات ذات المذاق الثلجى لتدفع فى مسار القلب انتفاضة الشباب الغارب . . . فنسينا فى سكرة الهوى خيوطا من فولاذ زرعتها خطواتنا القديمة فى أرض الحقيقة فكبلتنا وتوهمنا أننا قد امتلكنا أقدارنا . .

والأقدار لاتمتلك . . .

الأقدار تملك . . . وتختار . . . وترفض أن تقاد . . .

لقد وضعتنا أحجاراً على رقعتها لتدير بنا لعبتها . . . ربما لتمزح قليلاً . . . أو تلهو . . . أو تنفض عنها مللها السرمدى . . .

ولأننا مجرد أحجار على رقعة . . لم نر أبعد منها . . . فتحركنا وكأننا نصنع مصيرنا . . . وكانت الجريمة . . .

نظرت إليه . . . تتلمس فى نظراته الحزينة بارقاً من أمل يكذّب ما يقول . . . ولكن الغلالة المترقرقة التى تأبى أن تنفرط دموعا وتعلقت بجدار الحزن الأخرس دفعت نصلها فى القلب . . .!

وهمست بصوت مذبوح :

ـ وهل حل الآن موعد العقاب؟

أطرق برأسه وهو يهمس بكلمات تذبل قبل خروجها من الشفاه وتتساقط بين يديها كحصىّ عاصفة رملية :

ـ لا مفرّا فهو قانون اللعبة! . . .

ـ لم تكن عندى لعبة! كانت إعصاراً استلب كل مابقى من حياة! . . .

ـ وكانت كذلك عندى . . ! وتلك جريمتنا . . . أن نغفل عن المفارقة . . . ونصدق أوهامنا . . . ونحيل اللعبة جداً! . .

. . . فى صدره تمزقت النياط والأوتار والأنفاس . . .

. . . وفى عينيها ماتت كل الأيام الموعودة . . .

وأحنى كلا منهما رأسه . . .

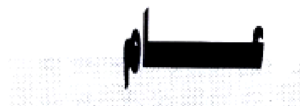
ينتظر العقاب . . . ويهيئ عنقه للجلاد . . .

كلمات من دفتر قديم :

وإنى وأن كنت الأخـيـر زمـانه

لآت بما لم تسـتطعـه الأوائل

«أبو العلاء المعرى»



وقد مر عام! . . . ثم . . . ماذا؟ . .

لقد مرت قبله أعوام وأعوام! وتراكضت الأيام تلو الأيام . . . لاجديد! . . .

الحقيقة يجب أن تكون صارمة . . . صماء . . . تقف وحدها . . . لاتتعلق بشيء مهما تعلقت بها الأشياء . . . جبل شامخ صامت فى صحراء وتحوطه الرمال ولايحتاج إليها . . . لايرنو إلى السراب لأنه لايظمأ . . . لايعبأ بالعواصف . . . لأنه لا يهتز . . .

«والحقيقة هى أن العام مجرد عام . . . مجموعة من الأيام تتجاور وتترافد لتصنع تلك الخدعة التى نرقص على إيقاعاتها الجوفاء . . .» .

توقف القلم فوضعه جانباً . . . أشعل سيجارة وخرج إلى الشرفة . . .

تنفس بعمق ثم أطلق زفيره من صدره وكأنه يتخلص من إحساس الزيف الذى جعله يكتب تلك الكلمات . . .

ماذا تريد أن تقول لها؟ . . .

أن العام مضى ككل الأعوام؟ وأن اقتحامها أسوارك لم يعن لك شيئاً؟ . .

تعلم أنك لو قلتها فقد كذبت! . .

وتعلم أن العام لم يكن كأى عام . . .

فى قلب العادة والملل والتشابه تكمن بذرة حلم! وكان الحلم يراودك كشعاع أخير يلمع فى نهاية يوم مثقل بالآلام وبالمرارة . . . وكنت تغمض عينيك بعد غروبه ليظل هناك بين الجفنين مغروساً فى الحدقة ! . . .

خبرنى ماذا فعلت بكل الأعوام؟ . . ماذا صنعت بيوم واحد من أيامك؟ . . .

ـ لم أصنع شيئاً!

هتف يرد على نفسه! . . .

هنا فى نفس الشرفة مع إطلالة فجر! كانت تقف هناك . . .

تعتمد بيدها فوق السور . . . تزيحه لتقترب . . لتتسرب فى المسام الظمأى رِيّاً يزرع فى الشريان رحيقاً أخضر . . . يورق فى القلب . . . يتدفق شلالاً من زهر . . .

كانت ليلة . . . كانت خطوة . . .

عرفت خطواتك ملمس درب لم تطرقه سنوات العمر . . .

صحبت عيناك مسير نهار لاتغرب فى آخره الشمس . . .

وتوالت أيام العام نهاراً بعد نهار . . .

والآن . . . ماذا تكتب؟ . .

هتف يرد : كلمات وداع!

تسألنى ولماذا الليلة؟ . . .

الليلة كانت موعدنا . . . يكتمل العام لنراود عاماً آخر . . . وهاهى لم تأت! . .

ـ لم يمض الوقت . . . فلتصبر! . .

ـ الفجر يطل . . . وأعرف أن الموعد قد فات . . .

عاد إلى الأوراق . . .

أمسك بالقلم . . . وراح يواصل فلسفته . . .

فالعام مجرد عام . . . والأيام جزء من خدعة! . .

والزمن مراوغ لاتهزمه غير الأحلام . . . فلنملأ جعبتنا برؤى الأوهام ولنحتضن الأشباح . . .

فالطيف يجسد أحيانا ما ترسمه أمانى الحال . . . والسراب يظل حقيقة مادمت لاتخطو إليه . . .

ابق مكانك واحلم . . . تلك حقيقة . . . أو فى الأغلب بعض هراء . .

كلمات من دفتر قديم :

تعرف الأحمق باختياره متى يغضب

والذكى باختياره متى يصمت

والحكيم باختياره متى يتكلم



عراف!

رحلة قصيرة لم تدم أكثر من ساعات!

تحديداً من قبيل الفجر إلى ضحى اليوم التالى! فقد أغمض عينيه على ذكريات اللقاء المترع برحيق الأحلام ونشوة الكلمة واللمسة وعذوبة الدمع حين يتفجر ينبوعاً من سعادة تقطر فى الفم مذاق الشهد . . .

وخلال ساعات النوم القصيرة كان يتأرجح على حافة تلك اليقظة الوسنانة يحلق فيها بجناحى طائر لم يكد يتحرر من الأسر ليشق جوزاً من فضاء تغمره الشمس . .

لم يكن الشعاع الدافئ الذى تسرب من بين جفنيه هو ما أيقظه . . . بل لعله استسلم له ليجفف مابقى من آثار الدمع . . .

كان الصوت هو ما أيقظه . . . ذلك الرنين المتقطع الذى استمر بإلحاح رغم محاولته كى يتجاهله . . . أحس بخطورة خفية تتردد فى ذبذبات الصوت المنذر . . . فالتقط السماعة . . .

جاءه صوتها يبكى . . . «لابد أن أراك الآن» . . .

لم تشأ أن تذكر له شيئاً يبدد مشاعر القلق والتوجس التى أيقظته على مرارة تلذع جوفه . . . ولكن إحساساً غامضاً داهمه كموجةٍ عالية . .

شىء ماينبض ومضاً فى أعماقه . . . يضىء فيضاً من ألوان حمراء . . . ويبدو وثيق الصلة بنبوءة قديمة . . .

النبوءة ولدت منذ البداية . . وصاحبت تلك الليالى المتعلقة من ربق الواقع وحتمية المصائر (انبعثت فجأة كالإلهام . . . ستأتى لحظة النهاية) . . .

الكلمة وحدها . . . ظلت تشبح أطرافه رعباً . . . ولم يكن بمقدوره أن يراوغها أو يتجاوزها فعايشها بأمل أن يطاوله الزمن أو يغفل عنه فينساه . . . حتى داهمه الرنين مع شمس الضحى! . . ساءل نفسه وهو يقود سيارته فى الطريق إليها (لماذا الآن؟ . . ما الذى يجعلك واثقاً إلى هذا الحد من اقتران الدعوة بالنبوءة القديمه؟) .

ولم يجد جوابا للسؤال . . وجد فقط يداً أخرى تعتصر شيئاً فى صدره لدرجة الألم الخانق . . . فراح يلعن نفسه . . . (لطالما اسخط الآخرين ونفسوا عليه براعته فى استقراء المستقبل . . . حتى لقبوه بالعراف . . . وهاهو الآن يتفجر سخطاً على نفسه إذ يتوقع ما سوف يحدث . . .) .

كان الموعد فى نفس المربع القديم الذى شهد لقاءهما الأول . . .

هناك عند المفترق . . .

لماذا أصرت هى على المكان؟ . . .

أجاب على نفسه : لاشك أنه إخراج المشهد الأخير . . .

كانت تجلس فى الركن المعهود . . . وعلى عينها تلك النظارة الشمسية الداكنة . .

وكان هو يكره تلك النظارة . . . ولكنها تعد لمسة ضرورية تكمل اللوحة . . .

تشابكت أصابعها فى تشنج ابيضت له الأنامل . . . همست :

نتزوج اليوم أو نفترق إلى الأبد . . .

أيسمع بقية ما استطرد من حديثها . . . كان يسمع صوتاً آخر . . . صوت ضحكة ترن فى صدره . . . (النبوءة تتحقق) . . .

الضحكة تصعد سريعا إلى وجهه . . . يرتج بها كل جسده . . . فهبت غاضبة . . . وابتعدت بخطوات عصبية . . . ووجد نفسه يتنبأ مرة أخرى . . .

- ستتظاهر بالثبات لحظات ثم لاتلبث أن تنطلق خلفها . . . أنا أعرفك! . . أنا أعرفك! من قالها؟ . . . سقراط؟ . . لكن سقراط قال : اعرف نفسك! . . فهل عرفت؟ ربما! .

كلمات من دفتر قديم :

الاعتراف بالخطأ . . ترف يمارسه

الأقوياء . . وإذلال يرغم عليه الضعفاء



شلال

كانت آخر محطة فى الرحلة . . . نياجرا . . .

بعد جولة شهر كامل طاف خلالها بمعظم الولايات من نيويورك شرقاً إلى سان فرانسيسكو غرباً . . . بقى له يوم . . . يقضيه فى نياجرا ثم يعود مع المساء إلى نيويورك ليركب طائرة الفجر عائداً إلى الوطن . . .

فوق الجسر الطويل المطل على ملايين الجالونات من الماء الهادر الصاخب . . . وحيث يتناثر الرذاذ كحبات رمال تدفعها ريح صحراوية عاصفة . . . وقف وقد ارتدى ذلك المعطف العراقى من البلل . . ابتعد قليلاً عن رفاق الجولة . . . تذكر فجأة أنه حتى الآن لم ير معابد الأقصر . . . ابتسم لنفسه فى خجل وقرر بداخله (سأفعلها فور رجوعى) . . .

كان الهدير الصاخب المدمدم يصك سمعة ويصمّ أذنيه ورغم

ذلك فقد سمعها تهتف باسمه . . . التفت نحو مصدر الصوت . . . كانت المسافة لاتتيح له أن يتبين الملامح ولكنه عرفها . . . إنها هى بلاشك . . ندت عنه آهة استبعاد الزمن وهى تقترب . . كانت ترتدى معطفاً أصفر . .

وخصلات شعرها تتطاير بقوة . . . وبعد لحظات توقفت عند بداية المتر الذى يفصله عنها .

لم ينطق أحدهما وظلا ينظران كل للآخر بتعبير الفضول الذى يتساءل عن رد الفعل الحقيقى داخل كل منهما حال رؤيته للآخر .

هو يعرف بالقطع ما بداخله : فكل المزيج الغريب من مشاعر الخجل والندم والحنين . . . أماهى فتبدو أمامه لغزا بإشراقة وجهها المتوردة وعيناها الطافحتان بدهشة وفرحة حقيقة هل كان كلا منهما يبحث عن الكلام . . . فلا يجده؟ ربما . . .

لابد أنه غمغم بعبارة ترحيب . . . ولابد أنها همست ترد عليه . . . ولعل أحدهما أشار إلى عدم مناسبة المكان للحديث ثم وافقه الآخر . .

فى النهاية وجدا نفسيهما وقد ابتعدا كثيرا . . . أصبح هدير الشلالات بعيدا باهتاً كذكريات طفولة بعيدة . . .

كانا فى شبه مشرب للقهوة داخل الحديقة الوارفة . . . يجلسان متقابلين وكلاهما يعبث بشىء فى يده ليتغلب على توتره . . . سقطت منها القداحة التى طفقت تشعلها ثم تخمدها . . . وانحنيا فى نفس الوقت . . فاصدمت رأسيهما . . . وحين اعتدلا كانا يضحكان . . . ثم انتهى الضحك أخيراً . . .

- ماذا تفعل هنا؟

- مؤتمر للتبادل الثقافى وجولة سياحية على هامشه . . . وأنت؟ . .

- أنا هنا منذ خمس سنوات . . . مع زوجى! . . .

بدا أنها تضغط على الكلمة الأخيرة بشىء من التشفى .

- تهنئتى وإن كانت متأخرة . .

لم تعن بالرد على التهنئة واستطردت .

- تزوجت بعد أسبوعين فقط من رسالتك إياها! . . . رجل عظيم يشغل وظيفة هامة فى الأمم المتحدة! لم يعلق . . . وأردفت بعد لحظة صمت : أمازلت تجيد كتابة الرسائل؟ . .

أيقن أنها انتهزت الفرصة لتثأر لنفسها من الجرح القديم . . واكتشف محبطاً إن الإشراقة والفرحه كانتا فقط من أجل الصدفة التى أتاحت لها أن تنتقم . . .

ولم يشأ أن يقاطعها . . . اكتفى بالصمت والنظر إليها وهى تتدفق فى حديث طويل من طرف واحد ارتعدت خلاله شفتاها . . وتشابكت أصابعها . . ولاحت دموع الحنين فى عينيها . . . كانت تبدو له كبطلة فى مشهد حُجب صوته . . . ولم يفق إلا عند عبارتها الأخيرة . .

- لم تملك الشجاعة ولم تتحمل مسئولية الرجل . . . وحقاً . . لم تكن تستحق! . .

رسم ابتسامة عريضة ليمنع بها تقطيبه الألم . . . ثم نهض

ووضع نقود الحساب على المائدة . .

وأحنى لها رأسه ثم مضى . . .

عاد يواجه الشلال ورزاز الماء يصفح وجهه فيختلط بشىء كالدموع . . .

وبقيت هى تعض على شفتها ودموعها تنهمر . . . بلا صوت . . . وحين خرجت . . . أطلقت لصوتها العنان . . . ولم تكن تخشى أن يسمعها أحد . . . فصوت الشلال يحجب كل الأصوات .

كلمات من دفتر قديم :

طوت الأرض من طوى الأرض حياً   وعلاه من كان بالأمس دونه

«إيليا أبو ماضى»

إعصار !

التوت قسمات العالم واكفهرت فى وجه البحر تجاعيد الغضب . . . وأسفرت الطبيعة عن محياها الحزين . . .

لم تبك . . . لم تتجمع دمعة واحدة فى مآقيها . . . لكن القلب يمور بهزيم رعد كسيح وفى الطريق حيث يجاور البحر المدينة . . . سارا بجوار السور الحجرى . . . فى صمت يخترقه صوت البحر والريح . . . وإيقاع الخطوات المرتبكة التائهة . . .

انشغلت هى بمحاولة كبح جماح شعرها المتطاير فى ثورة تواكب ثورة الريح . . . ووضع هو يديه فى جيبى سرواله التماساً لدفء مخبوء أو ربما ستراً لتوتر يعصف بأعصابه . . .

التفت إليها . . .

ـ أتقولين شيئاً؟

ـ لم أفه بحرف! . .

- ظننت أننى سمعت صوتك! . .

- لعله صوت البحر والرياح . . .

ولفهما الصمت من جديد . . . وبعد أن اعتقلت شعرها داخل «الايشارب» راحت تضغط جسدها داخل المعطف وهى تحاول أن تربطه بحزامه وتفشل مرة بعد أخرى حتى اكتشفت آخر الأمر ضياع «الزر» . . . تجمدت فى مكانها والتفتت له بعد أن سبقها بخطوة . .

- انتظر . . .

توقف واستدار . . . أدهشه تعبير السخط على وجهها ورنة اللوم فى صوتها . . .

- عرضت عليك أن نستقل أى عربة وأوصلك إلى منزلك فرفضتى . .

- أنا لم أتعب . . ولكن زر المعطف سقط فى الطريق . . .

- يمكنك أن تستبدليه . . .

- لن أستطيع الرجوع بالمعطف دون الزّر . . .

- دعك من المزاح فليس هذا وقته! .

- أنا لا أمزح!

- وأنا لا أفهم! ما الخطأ فى سقوط زر معطف من أى إنسان فى أى وقت .

- لم يكن زراً عادياً . . . لقد وضعته فى إطار من الذهب ونقشت عليه الحرفين الأولين من اسمى واسمك! . .

اختنق صوتها وارتعشت نبراته فى الكلمة الأخيرة . . .

نظر إليها طويلاً . . . كان رزاز الموج المرتطم بالسور الحجرى قد بلل وجهها بقطرات بدت كدموع تغسل الوجه كاد يضعف لولا أن العينين جافتان تماما . . .

- وما قيمة اسمى لديك بعد كل ما حدث؟ . .

- هى ذكرياتى مهما كرهتها . . .

وقفا صامتين . . . متواجهين . . .

لم يعرف أحدهما كلمات أخرى ليتفوه بها . . .

وكانت السحب المتكاثفة قد ازدادت سواداً . . . وانهمر المطر كسيل غاضب يضرب كل شىء . . .

وبسرعة . . . خلعت معطفها ثم غطت به رأسها ورأسه . . .

تجاورا ومضيا متشابكى الزراعين . . . وبيد كل منهما الأخرى أمسكا بطرفى المعطف . . . وهمس لها . . .

- فلنعد عبر نفس الطريق لنبحث عن «الزرّ» .

وعد!

قالت له بالأمس : سأجيء . . في نفس الموعد وفي نفس المكان . . . وصدقها! كان دائماً يصدقها . . . رغم ما قالوه عنها . . . ورغم ما اتهموها به . . . كانت دائماً تثبت له الضد! لم تخلف موعده يوماً . . . ولم تتأخر أكثر من دقائق . . . ربما تفجرت المشاكل بينهما أحياناً . . . وربما فترت التيارات الساخنة وبردت الجمرات . . . وربما . . . وربما . . .

ولكنها حتماً ستجيء . . .

في ذلك المكان المطل على المدينة فوق سطح الربوة . . . وتحت الخميلة المزهرة التي يسري عبقها مع النسمات الباردة كدفقة عطر في شعر غادة حسناء . . . هنا كانا يلتقيان . . . وظللت الأفرع الخضراء بذرة حبهما الوليد . . . حتى شبت ونمت فارتحلت بعيداً تبحث عن مغاني الشباب الحارة . .

انقطعا عن ملتقى البدايات . . . والتقيا في مرابع أخرى . . . فجرى على الحب ما يجري على سائر الأشياء . . . وبعد شهور قليلة تحطمت الكئوس التي ملت الأصابع حملها . . . فأسقطتها . .

صارا يلتقيان نعم . . ولكن . . . تباعدت المواعيد! وبعد أن كانا يكتفيان أحدهما بالآخر . . . راحا يبحثان عن الآخرين . .

أدلى لها ذات مرة بملاحظة عابرة . . .

- صديقتك «د» .

- ما بالها . . .

- لا أشعر تجاهها بالراحة . . .

- ومالك بها . . . هي صديقتي أنا . . .

- سلوكها تشوبه مآخذ تتردد على ألسنة الناس! .

بغضب جامح أجابت : فلتقطع ألسنة الجميع . .

- لكني أرى ما يرون! . .

- إذاً أصابك العمى! . .

وانفجر أول شجار حقيقي بينهما لتتدفق منه شلالات المرارة والعناد والكبرياء الجريح . . . وحين هددها بالاختيار بين صديقتها وبينه . . . كانت الأمور تسير في اتجاهها المأساوي! . .

- تريد مني أن أضحي بأعز صديقاتي من أجلك . . حسنا . . سأفعل . . بشرط أن تقطع أنت أيضا صلتك بصديقك «م» .

- المسألة ليست تبادلاً لطرد السفراء بين دولتين . . .

- المسألة أننى لا أحب صديقك . . وأنت لاتحب صديقتى . . . فالعدل إذاً أن أخسر وتخسر! . .

كانت تعلم أنه لايستطيع أن يخسر صديق عمره . . وبالتالى فلم يكن هناك اختيار

. . تصاعدت المشاحنات . . . وتباعدت اللقاءات . . .

وبالأمس طلب منها أن يلتقيا ليحس كل الأشياء . .

وحل الموعد ولم تحضر . . .

ومضت بعده ساعة ولم تحضر . . .

رواده قلق أن يكون قد ألم بها عارض فى الطريق . . . فهب ليطلبها على الهاتف ولكنه توقف فى منتصف الطريق . . فقد تذكر فجأة اتفاقهما القديم . . .

- إذا أحس أحدنا بفتور مشاعره تجاه الآخر وعجز عن مواجهته فليعطه موعداً ولايذهب . . وبعد ساعة على الطرف الآخر أن يفهم الأمر . . .

و . . . نظر إلى ساعته . . . ففهم الأمر . .

كلمات من دفتر قديم :

أما هواك فلم نعدل بمنهله

شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

«ابن زيدون»

إلهام

كان يعشق المطر! . . ويهفو طوال شهور الصيف لمقدم تشرين! . . وحين تتكاثر الغيوم القاتمة فى أركان الشمال . . كانت الأوتار تضطرب فى صدره . . . وتبدأ الأنغام فى التوافق حتى تتساقط القطرات مبشرة بقرب المواسم الديسمبرية . . فتتناسق أجزاء المعزوفة . . .

فى كل ثنايا الوجود تتوزع إشراقات كامنة . . . وخلف الأشياء جميعا تبرق ألوان من سحر خاص : فى الأرصفة الخالية الجرداء يبللها الرزاز . . . فى الأوراق المتقافزه بلا معنى تدفعها هبات الريح . . فى النوافذ ذات الستائر المسدلة يتسرب منها ضوء مرتجف . . . فى غبش الماء الكابى . . . فى الأبوات المصمتة المغلقة تطرد حتى هسيس الأمطار . . . والدفء المتخيل خلف الجدران . .

يرقص قلبه طرباً حين يطل من نافذته ذات مساء فيستنشق

تلك الرائحة التى تنبئ عن عاصفة وشيكة إذ يعرف أن اليوم التالى موعد تلك الجولة . . .

يهجر دفء الصندق المغلق ، يلبس معطفه القديم . . . ينظر عبر زجاج الشرفة . . . يوقن أن الشمس المحتجبة لم ترسل هذا اليوم سوى حزمة أضواء فضية تبرق في قطرات الماء وتشيع فى الأرجاء انعكاسات اللون الشاحب مغموساً فى بهجة حزن يتطهر . . .

يخرج للشارع . . يخطو عبر مسارب مهجورة . . . يتوجه صوب البحر . . . يغتسل بتبض يهطل من سحب حبلى . . . ورذاذ من صخب الموج . . . تنسال خيوط الدفق المثلوجة تغزو كل مسام الجلد . . . لا يأبه حين تثقل ملابسه حوله أو يمتلئ حذاؤه بمياه السيل . . .

أحيانا يخلع بعض ثيابه . . . يستمتع بمزاق البرد . . . ويوماً . . . كان رفاق المقهى يختبئون وراء نوافذها المغلقة . . . ورأوه يعود وقد أمسك حذاءه فى يديه . . . جحظت أعينهم حين أشار لهم بعينه عابثا وأفرغ ماء النعلين على رأسه . . .

قالوا عنه كثيرا . . . مجنون شتاء . . .

فى المنزل حين يعود . . . يخلع كل ثيابه . . . ينشرها أمام المدفأة . . . يشعر بدبيب الحمى . .

أبداً لم يخش الآلام . . .

كانت جزءاً من طقس محتوم . . .

أروع ما فيها تلك الخطرة يخطوها عبر جدار الوعى . . . يتأرجح فى حجره اليقظة إذ تغفو فتسلمه للحلم . . .

يؤله جسد مأسور . . . وعظام تلهبها الحمى . . .

لكن الغيبوبة تأتى . . . تسدل ستراً حول الضعف البشرى . . . توقظ طفلاً يتوهج فى أعماق الشيخ . . . يعرف فى زمن متأخر سر الميلاد . . . ينهض . . .

يبحث عن قلم عن أوراق . . .

يكتب . . . يسقط جدران العادة والغفلة . . . يفتح أجفان الحقيقة . . . يقرأ للحدقة أسفاراً من تاريخ مجهول . . .

يدعو المختبئين خلف الجدران . . . فلتلقوا بنار الدفء الخادع . . . ولتتجهوا صوب البحر . . . ولتمشوا تحت الأمطار . . .

. . . تنداح الحمى . . . تبترد القطرات الملتهبة . . .

والرأس الحالم يتوسد تلك الأوراق . . . والقلم الهاجع يعانق سطرين . . .

سطراً من قطر الدمع . . . وسطراً من قطر الأمطار .

كلمات من دفتر قديم :

قالت : هى تنظر للمرآة طوال اليوم

وأنا لا أقربها . . .

قلت : أنت أكثر نرجسية منها . . . لأنك تشعرين بأن جمالك ليس فى حاجة لشهادة مرآة؟

شـــذى!

قبل أن تتوقف السيارة على مرمى أمتار من البيت المنشود نظر إلي المظروف القديم الذى وضعه على المقعد المجاور . . . ساعتها فقط أحس بالندم! . .

ما الذى ورطه فى هذا الأمر!

لقد كانت مجرد صدفة حين امتدت يداه إلى مكتبة أبيه الراحل! وراح يقلب ما فيها من كتب . . .

ربما كان الحنين هو السبب . . . لقد طالعته صورة الأب التى تتصدر جدار الحجرة وخيل إليه أن فى نظرة الرجل بريق عتاب . . . وكأنه يقول له . . . أترك لك كل هذه الثروة ولاتقربها؟ تذكر أنه لم يلمس كتاباً منها طوال تلك السنوات ولم يخجله ذلك . . فالميول لاتتوارث كان الأب كاتباً . . . لكن الابن لم يكن . . . حتى القراءة لم تكن من هواياته الأثيرة . . . تلك الليلة فقط أحس بحنين يدفعه لإلقاء نظرة داخل عالم أبيه . . . وكان موعده مع الصدفة !

كتاب صغير يحتل مكاناً غريباً وسط صف من الأسفار الضخمة . . . لفت نظره فتناوله وفتحه . . .

من نافذه صغيرة هبت نسمات تتضوع بالشذى . . .

والنافذة رسالة زرقاء مطوية على وردة ذابلة تصبرت وريقاتها فالتصقت بالسطور . . .

اقتحمت ذهنه فى سرعة البرق تلك العبارة التى حيرته زمنا . . . قالها الأب وهو على المحفة التى حملته إلى حجرة الجراحة التى شهدت لحظاته الأخيرة . . .

كان يعرف أنه فى طريقه إلى النفق المظلم الذى سينقله إلى هناك . .

أمسك بيد ولده وهمس له :

ـ كل مالم أتركه لك . . . أعده لمن يملكه!

. . . وهذا بلاريب بعض لم يتركه له . . . حوت الرسالة على ظاهرها رقماً للهاتف .

. . . لم يضع وقتاً . . . طلب الرقم . . . ورد عليه هذا الصوت النسائى الرقيق . . .

ـ نعم أنا هى . . .

ـ وأنا ابنه . . . واعتقد أنه ترك شيئاً يخصك وأريد أن أعيده لك . .

ـ أهلا بك!

أعطته العنوان . . . وهاهو أمام البيت والرسالة فى يده! وعشرات الأفكار المشبطة تدور فى خاطره . . . أقلها أن يبدو فى نظر هذه

السيدة متطفلا اقتحم منطقة محرمة من حياتها وفرض نفسه على ذكريات لايحق لغيرها أن تمسها قرر فى لحظة أن يتراجع .. واستدار إلى الشارع ... ثم توقف ...

أليست السيدة المسكينة تنتظره بلهفة كل سنوات الحزن والحنين ... أليست تتحرق شوقاً لتسترد جزءاً عزيزاً من شبابها؟ ...

ارتد مرة أخرى وطرق الباب ...

من الفرجة الصغيرة انبعث ذلك الشذى مرة أخرى ... وأطلت ...

مدت إليه يداً ضارعة ... وعانقته بنظرة تتدافع الدموع على أعتابها ...

تذكر لحظتها فقط ... أنه لم يبك أبيه حتى الآن ...

وأحس لأول مرة بلوعة فراقة ...

أجهش بالبكاء ... أخذت بيده ... وأراحته على مقعد بجوار الشرفة ..

هذا مقعده الأثير ... لم يجلس عليه أحد بعده! ...

وجلست أمامه ... همس بخجل وهو يقدم لها الرسالة : لم أقرأها!

أضاء وجهها بابتسامة ... وفتحت الرسالة ... قبلت وريقات الوردة ... وراحت تقرأها له ... ومعاً ... ظلاه يبكيان .

كلمات من دفتر قديم :

نفقد سعادتنا فى نفس اللحظة

التى نتساءل فيها إلى متى تدوم!

خطأ

خطوة واحدة تفصل القدم عن الهوة ... خطوة تغرى بالتقدم ... يحركها التحدى ...

ربما تغتفر لمن عصبت عيناه ...

ولم تكن هى معصوبة العينين ... فقد نبهها وأشار إلى الخطوة وحذرها ...

ومع ذلك أصرت ... وتقدمت ... خطت الخطوة! ..

سألت صديقى وقد جاءنى والحزن يملأ عينيه ... فأجاب بالقصة كاملة ...

كانت تبتسم وهى تحكى له ما تقوله عنه لصديقاتها ... طيبته وقلبه الكبير وحبه الغامر ... وظلت تردد نفس الكلمات فى كل مرة ظناً منها بأنها تسعده ... وقد حاول أن ينبهها ... فلو ظل

الأمر فى نطاق الكلمات لأسعده فعلاً . . . ولكن الكلمات كان تتحول إلى فعل . . . إلى سلوك تعتمد فيه على طيبته ورحابة صدره . . حذرها . . قال لها أن ما تفعله يستنزف كل رصيد الصبر . . . يصنع فى أعماقه ثقباً تتساقط منه مشاعر التسامح قطرة قطرة . . . لكنها ظنت تحذيره بعضاً من طيبة قلبه فأجابته بضحكة وبكلمة حب تتصور أنها تجرده من أسلحة الرفض . . . هتفت ملحاً :

ـ أتكلم جاداً لا أمزح! . .

ـ لكنى أمزح . . . أرفض كل هموم الجد . . . أهرب من آلامى لرحابة صدرك! . .

ـ أخشى أن يخدعك صبرى فتخالى أنى ملك يمينك . . .

ـ أو لست كذلك؟ . .

ـ بالحب أكون! . . . لكن الحب لدىّ إرادة . . . وكما أحببتك مختاراً يمكننى أن أختار البحر . . .

ـ تهجرنى؟ . .

ـ حين يفيض الكيل! .

كانت قشة . . مجرد قشة! . . يخشى أن تخدعها خفتها فتلقيها فوق الأحمال فينقصم الظهر . .

كانت خطوة . . . مجرد خطوة . . . يخشى أن تغريها بساطتها فتخطوها وينتهى الأمر . . .

فلتبتعدى! لاتدعى هذا الظل من الماضى يحجب جزءاً منك . . . فيبعدنى عنك . . .

. . . لم تدرك أبداً ماذا تفعل فى صدره تلك القشة . . .

لم تدرك أبداً أن الخطوة تفضى بالحب إلى الهوّة . . .

ألقت بالقشة . . . وخطت الخطوة . . .

. . . صمت أخيراً وغلالة دمع متحجر تغشى عينيه! . .

. . . جفت كل الكلمات . . . سقطت من شفتيه حطاماً! . . ونظرت إليه . . . لم أدر بماذا أشير عليه . . . لكنى لملمت خليطاً من كلمات . . .

ـ أنت تحب فلاتتسرع . . . لن تحتمل قرار البحر . . .

لمعت فى عينيه ومضة حزن ساخرة . . . وهمس بأخر كلماته . . .

لمَ لا؟ . . القلب الطيب ينسى! . . .

. . . ومضى . . . ربما كان بدوره يخطو تلك الخطوة . . . نحو الهوة .

كلمات من دفتر قديم :

«الحقيقة . . . يبحث عنها الفلاسفة . .

ويحلم بها الشعراء . . ويجدها

الرجل العادى كل يوم

فى الأسواق»

نداء!

لاتفعل! . . .

لاتتركها! لاتتراجع داخل قوقعة الخوف من الآتى! . . . لاتنكمش تحت درعتك الظهرية كالسلحفاة! . . . لاتتخفى بخيوط الراحة الحريرية . . . لاتتشرنق! . . .

«لم تخاف؟» .

كان سؤالاً يلمع فى عين الآخر! يتألق غضباً . . . يلقى القفاز بوجه جبان . . . وأدار هو عينيه بعيداً نحو الأفق الغامض يبحث عن بعض جواب . . . همس بصوت يتأرجح على حواف البكاء . . .

ـ تعرف مشكلتى! . . . يؤرقنى خطو السنوات! . . . أن أحسب عمر الخطوات! . . . يؤرقنى أن أصبح يوماً شيئاً من ماض راحل . . . أو طيفاً من ذكرى . . .

ـ أو لم تعرف هذا يوم مددت لها كلتا يديك . . . تدعوها . . . تدفعها نحو الدرب الموعود : ترسم فى عينيها أحلام سعادتها المفقودة . . . تهمس فى أذنيها بالكلمات . . . عن قدر الحب المترصد خلف الأبواب! . . .

ـ كنت ضعيفاً . . . أجرى خلف سراب! أعتصر رحيقاً لم يتبق بزهرة عمر منسية . . . أتقمص كل الأوهام! أغرى العقل بصبوة قلب لم يسمع دقات الساعة! لم يشعر بدبيب الأيام!

ـ تتلمس عذراً للإثم المرزول! . . . لو كنت شجاعاً لتكلمت . . . لوضعت بين أصابعها كل خيوط اللعبة حتى تختار . .

ـ أقسم أنى قد فعلت . . . وكتبت إليها . . . وسطورى مازالت بيد يديها . . . تقرؤها حتى اليوم! . . . وفتحت كل جروحى أمام عينيها . . . لم أخف قطرة دم . . .

ـ واختارت؟

ـ ضربت بحروفى عرض الحائط! وصمتنى بأنى أبحث عن درب فكاك!

ـ لأنك ياصديقى لم تختر ميقات العدل! وكتبت إليها بعد نفاذ السهم! وكانت قد جمعت كل خيوط الحب الخالص تغزلها ثوباً تهديه إليك! رحت تخيرها بين الأمر ونفى الأمر بعد أن اخترت الوقت الضائع وأوصدت دون إرادتها طريق الرجعة! . . أعرفها تلك اللعبة . . . وتعرفها أنت . . . .

ـ تظلمنى وأنت صديق؟ . .

- بل أواجهك لأنى صديق! . . . صدقنى أنت لم أعرف عنك قديما هذا الجبن! . . .

- ما أفعله الآن هو ذروة الشجاعة! تعرف أنى لن أقوى على الحياة بدونها .

وتعرف أنى إذ أتركها أقتلع من أرضى كل جذور الحلم! وأعود إلى صحراء جدباء لاتنبت عوداً أخضرا! . . . تعرف أنى ساعتها سألملم أوراق العمر المهزوم وسألقيها بيدىّ نثاراً على البحر . . . تتقاذفها حبيبات الزبد العاصف . . .

أفعل هذا ياصديقى كى أعيد إليها طريق الرجعة . . وفرصة الاختيار . .

- ستدمرها! ناشدتك ألا تفعل! ناشدتك أن تعلو فوق الأوهام . . . ولتلق بمخاوفك إلى اليمّ فداء لأوراق العمر . . . ولتعلم أنك إن لم تسمعنى . . . فتلك هى الهزيمة . . .

ولم يجب . . .

ولم يزد الصديق . . .

علا صوت الموج الصاخب . . . وصراخ النورس . . . كانت الليلة قد انتهت وأطل صباح!

كلمات من دفتر قديم :

«ربما تجمعنا أقدارنا . . . ذات يوم بعد ما عز اللقاء

فإذا أنكر خل خله . . . تلاقينا لقاء الغرباء

ومضى كل إلى غاية . . لاتقل شئنا فإن الحظ شاء

«إبراهيم ناجى»

مسافة!

ثلاثة أمتار فقط كانت تفصل بين مكتبة وبين مكتبها . . .

حين جاءوا بها لم يكن هناك فراغ فى الحجرة غير تلك المساحة التى تواجهه أسفل النافذة . . . فوضعوا مكتبها هناك . . . ووضعوا بجواره حامل ملفات طويل احتل جزءاً من فراغ النافذة . . . ذلك الجزء بالذات الذى كانت تطل من خلفه الفروع المزهرة لتلك الشجرة دائمة الخضرة . . .

حقد عليها وكرهها منذ اليوم الأول . . . وبمجرد أن انصرفت لشأن من شئونها حتى انفجر فى وجه باقى زملاء الحجرة يحتج ويستثير فيهم الغضب . . لكن أحدهم ـ ذلك الأعجف ذو الوجه الذئبى ـ تسلل خلف أذنه ليهمس له :

- هى «قريبة» المدير العام . . . فلا تزدا! . .

حملق فيها لحظة رجوعها . . . وأدهشه ماتتمتع به من جمال!

أدرك أن معركته خاسرة قبل أن تبدأ . . . فهى ليست فقط قريبة المدير العام . . . فجمالها أهم! . . . وسيجعل كل الزملاء فى صفها . . . خاصة ذلك الذئب المتربص الذى يجاوره ويتقدم عليه وظيفياً ببضع سنوات . . .

همست له ذات صباح :

ـ كلهم عرفونى بأنفسهم . . . إلا أنت!

لم تكن كلمات . . . بل هى على الأرجح «زقزقة» كناريا تتراقص على شفاه تفتر عن بسمة تشرق كشمس ربيعية! . .

نظر إليها ببلاهة لم يتعمدها . . . وحين اتسعت ابتسامتها . . . ضاقت مسافة أخرى بين حاجبيه وسمع صوتاً أجشاً يخرج من حلقه :

ـ حضرتك قريبة المدير العام؟

ـ حضرتى زميلتك! . .

أحنقته المناورة فأصر على سؤاله : حضرتك قريبة المدير العام؟ . .

غرد صوتها واهتزت فى نبراته توترات ضحكة مبتورة :

ـ وافرض؟!

كان الجواب «الكلمة»! مليئا بالتحدى . . أنساه للحظات كل المحاذير التى لايحق لأى موظف صغير تافه أن ينساها . . .

ـ إذاً فأنت غير مضطرة للجلوس معنا فى نفس الحجرة! يستطيع قريبك أن يضعك فى حجرة خاصة . . . حجرة لايشاركك فيها

أحد . . . بل يمكنه أن يضعك فى مكتبه هو . . ذلك المكتب الواسع الذى يمكنهم وضع مئة موظف فيه ولكنهم لأسباب حمقاء وضعوا فيه رجلاً بمفرده لمجرد أنه المدير العام . . . انظرى يا آنسة . . . لقد وضعوا أشياءك أمام عينى مباشرة . . . أخفوا نصف النافذة . . . منعوا عنى رؤية تلك الشجرة . . . وهى ليست كأى شجرة . . . فهى دائمة الخضرة وزهورها تتلون وفقاً لأوقات اليوم فهى بيضاء فى الصباح . . . زرقاء فى الظهيرة . . . ثم تحمر عند الغروب . . . أرجوك . . كونى طيبة واتركى هذا المكان . . . ولاتعتمدى على نفوذ قريبك . . . فالشجرة ترفضك . . . وبالأمس القيت عليها نظرة . . . فوجدت خضرتها قد بهتت . . . وزهورها لم تتكون . . . وهذا يعنى أنها غاضبة . . . وقد تفكر فى الانتقام منك . . . قد تمد فروعها عبر النافذة وتلفها حول عنقك . . . وقد حدث هذا مرة . . . بل عدة مرات فى الحقيقة . . . أنا لا أريد أن افزعك ولكن . . .

ـ اشرب قدح الشاى وإلا سيبرد . . .

التفت إلى زوجته كانت تحلق فيه عابسة :

ـ تكلم نفسك؟ . .

همس قبل أن يرشف الشاى . .

ـ أحياناً . . .

كلمات من دفتر قديم :

ذروة ضعف الإنسان حين ينتقم . . وهو يقوى على الصفح
وذروة قوته حين يصفح . . وهو قادر على الانتقام .

حماقة

لحظة صدق كان يدين بها لها . . .

كثيرا ما حاول أن يصل لتلك اللحظة . . ولكنه فى كل مرة كان يجبن ويتراجع . . .

فى الطريق أميال طويلة تفصل الإنسان عن السمو وقهر الذات والتوحد مع الحقيقة . . . فهو مخلوق محب لنفسه يتشرنق داخل جلده ولايستطيع أن يثقب الشرنقة ويفلت من داخلها ليصبح فراشة ملونة . . هو لايريد أبداً أن يحترق فى وهج الآخرين . . .

لم يكذب عليها يوماً . . . ولكنه أخفى عنها الكثير . . . وإخفاء الحقيقة هو الوجه الآخر للكذب . . ضيع الفرصة فى بادئ الأمر حين كانا على الشاطئ . . . لم تبتل أقدامهما ولم يجرفهما التيار إلى لجة الارتباط وتبادل الاعتماد . . .

كان يخشى لو صارحها أن تهرب ويفقدها!

«ماذا كنت تريد؟» سأل نفسه مراراً وأعياه الجواب .

أطل داخل أعماقه وهاله ما رأى . . .

الأنانية وشهوة التملك . . . أن يرتبط به الآخرون ويبقى هو حراً . . .

ورأى الضعف والعجز . . . فشل دائما فى امتلاك زمام المبادرة واتخاذ القرار فى اللحظة المناسبة والتقدم خطوة نحو ما يراه هو نفسه الحق والصواب . . تأخر القرار طويلاً وحين وصل إليه كانت مرحلة الأمان قد أفلتت . فهاهى تتخلل كل جزئيات حياته وتدور حول محوره . . . وقد حرقت وراءها كل السفن . . . ولابد إذا واجهها بالقرار أن تتحطم حياتها وتتحول إلى أشلاء جريمة بكل معنى . . . كان يعرف . . . ولكنه لم يجد مفراً . .

التقاها فى الموعد . . .

كان قد أنبأها فى الهاتف أن هناك قراراً خطيرا سيبلغها به . .

ظلت تنظر إليه وعيناها تطرفان بتوجس يخفى وراءه فى الحدقتين خوفاً داكناً رهيبا . . .

وظل هو صامتاً . . . لم يحاول أن ينظر فى عينيها . . . حتى أتاه صوتها . .

ـ أهى النهاية؟

أجفل وقد تلقى ضربة عنيفة من حيث لم يتوقع! (أكانت تعرف؟) .

ـ بعد أول شهر . . . حين أنكرت وجودك وادعيت السفر ولقيت صديقك بالصدفة ليخبرنى بأنك لم تسافر وأنك كنت معه فى نفس اليوم . . وأتاها صوته متحشرجاً كأنما يأتى من جب عميق . .

ـ ولماذا واصلتى اللقاء رغم هذا . . .

ضحكت وشردت إلى بعيد . . .

ـ أحببتك والحب لايصدق إلا ما يتمناه . . . التمست لك عشرات الأعذار وأقنعت نفسى بوجاهة أسبابك . . . حتى رأيت فى عينيك منذ أيام قرارك الذى تريد أن تبلغنى به .

نهض . . وسار قليلاً ثم التفت إليها وعلى وجهه ابتسامة لا يعرف هو حتى الآن سببها . .

ـ أنت مخطئة . . فقرارى على العكس تماما . . . أريد أن أتزوجك . .

أحنقه أن تكتشف أعماقه فتزوجها ليثبت لها العكس .

كلمات من دفتر قديم :

ولولا الهوى ما ذل مثلى لمثلهم

ولاخضعت أسد الفلا للثعالب

«عنترة العبسى»

فراق !

طفرت من عينيها دموع العجز . . . كان الأمل الباقى يفرّ من بين أصابع كفيها . . . كأن القبضة تدخر لما بقى من العمر حفنة ماء . . .

وكان هو يذرف دمعه داخل حلقه يتسرب إلى الجوف المرتجف كجرعة سقراط . . .

جاءت لحظة تنفيذ الحكم وعليه بلا شكوى أن يتجرع كأس السم . . .

وقد حمل الكلمات على كتفيه طوال نهار . . . درب نفسه . . .

لن أنظر فى عينها . . . سألقى حملى . . . وأغص بدمعى وأخمش بأظافرى كل جروحى . . . ثم أمضى . . . وتمضى . . . بعضا من أيام نحشو فيها جراح الصدفة والأعين المفقوءة وأشلاء كائنا الجميل . . . بملح الصبر . . . وننسى . . .

وها هو قد قال . . . لم يتراجع . . . اعتصر مزيج الحزن والخجل والمهانة ليخبرها أنه خسر معركتها . . . واضطر لرفع رايات التسليم . . .

فى بدء الأمـر . . . والحب وليـد لم يفطم دون الأحـلام . . . كانت تتنبأ . . . وأسرت إليه بمخاوف حرب تدهمها . . . تجتاح قلاع الحب . . . تحتل بقاع القلب . . . تطرد كل فلول الأحلام الجوعى . . . تسقط ألوية الـ«نحن» . . . وتغرس بدلا منها رايات الـ«هُم» . . .

يومها غضب عليها واتهمها بعدم القدرة على تحمل مسئولية الاختيار . . .

حدثها كثيراً عن قوة إنسان يختار ويدافع دوماً عن اختياره . . كانت تبتسم بشك . . . ثم تأمن إلى وعود القوة فتنام ملء جفونها . . .

ولم يكن يكذبها القول . . .

كان فقط مجرد حالم . . .

حمل سيوفه ورماحه ودروعه . . . ونزل إلى الميدان . . . ولأول وهلة خسر الحرب . . . لم يقو على النظر فى عينى من أبكاهم إنذار الرحلة . . . نفس الرحلة التى اعتبروها أرضا مملوكة . . . فدانت إلى ملكة أخرى . . . اقتحمت أرض الفارس وجردته من نبل الفرسان . . .

كان عليه أن يختار . . .

أن يشقى ويشقيها . . . ليسعدوا هم» . . .

أو يرتويا معاً من نبع الماء الحى . . . وليزرفوا هم كل الدموع . . .

ما كان لرجل مثله أن يختار . . . وقدولد مجرداً من كل حقوق الاختيار هكذا قرأ سطوراً منقوشة على جبينه . . . وكانت هى المرأة . . .

نقتات الحزن ونحيا . . . أشباحاً وظلالاً وخيالات . . . ونهجع على سرير الشوك مع الذكريات . . . لولا بعض مرارات الإحساس بالخذلان . . .

تبادلا الاتفاق دون كلام . . . وأغمضا عيونا لن ترى اثنتاهما الآخرتين إلا فى غبش الماضى الذى لم يصبح مستقبلاً .

كلمات من دفتر قديم :

إذا كان الإنسان لاينزل النهر

مرتين . . . **لأن الحياة تتجدد . . . وتجدد**

الحياة خطوة لفناء محتوم . . فعليه

أن ينزل النهر ولايخرج . .» .

«برنارد شو»

متمـــرد!

حتى مطلع الفجر فى الرابعة صباحاً .. كان مدلها ... مدنفاً ... يعيش قصة حبه الأخيرة فى قمة عنفوانها .. وفى الصباح لم يعد كذلك!

لايعلم ماذا حدث فى السويعات التى أسلم نفسه فيها للغفوة .. هل كان حلماً أم كابوساً أم بعض من إلهام! .. فلم يستطع أن يتذكر ...

كل ما أحس به حين أستيقظ كان صداعا رهيباً يفتت كل ذرة فى رأسه ... ومرارة تملأ حلقه بطعم الحنضل ... وغشيان يمل يغشاه لدرجة الإغماء .. وفكرة ثابتة تسيطر عليه :

ـ لقد مللت .. مللتها ومللت الحب ... ومللت انشغالى بغيرى ... أريد أن أسترد حريتى ..

... الحرية ... ترى أهى كلمة السر؟ ..

... طوال عمره وهو يتلقى دروساً من الآخرين ... وكلهم يتهمونه بأنه غير قادر على تحمل المسئولية

... أية مسئولية؟ ...

ألا تكفينى مسئولية نفسى حتى أحمل فوقها مسئولية الآخر؟ ...

... فى أيام الفراغ يتوقّد شوقاً للحب ويتحرق لهفة لممارسة الشجن وتذوق الدمع وارتشاف الرحيق ... ويعدو لاهثا يبحث عن شباك يلقى بنفسه فيها راضياً مستمتعاً ...

أيام وينازعه الآخر مقود أمره ... وتبدأ المأساة دائما بتلك الأسئلة : أين ذهبت بالأمس؟ .. وإلى أين تذهب اليوم؟ ومن كنت تحدث فى الهاتف؟ ألم يكن هاتفك منشغلاً بتلك المكالمة الطويلة؟ .. لا أصدق ... صارحنى بالحقيقة : من هى؟

... يريد أن يخلو إلى نفسه أحيانا ...

(ليس معنى الحب أن يشاركك الآخر كل لحظة) .. ويريد أحيانا أخرى أن يتسامر مع أصدقائه ... يضطر للكذب عليها واختلاق الحجج والمعاذير ... اتكتشف الكذب فتحاكمه : لم كذبت علىّ؟ ... وإذا كان الأمر بهذه البساطة فلم لاتذكر الحقيقة؟ .. وما أدرانى أنك لاتكذب فى كل شيء ...

حسناً ... لم لاتدعينى أكذب!؟ الكذب ياصغيرتى لصالحك ... دعينى أكذب وأحمل مشاعر الذنب فأعوضك عنها ...

يحس بالاختناق . . . يكرهها للحظات . . . ثم تغلبه دموعها . . . .

ثم كانت لعبتها الخطيرة بالأمس!

تعمدت أن تقف وتتحدث مع ذلك الذى تعلم أنه يكره . . . وضحكت معه لتسمعه . . . كان يعرف اللعبة ومع ذلك التهبت دماؤه فانقض عليها ليسحبها من معصمها فى خشونة ويمضى بها بعيداً . . احتجت ولم يأبه لها . . . حاصرها . . . وضيق عليها الخناق . . . هددها بأنهما قد وصلا لمفترق الطرق . . . بكت وانهارت . . لذعته دموعها وجردته من كل أسلحته . . . فراح يسترضيها ويربت على مشاعرها بكل مقدرته على الحب . . . وتركها وهى تحس بنشوة انتصار كاسح وقد أحست بأنه أضحى ملك يمينها . . .

وها هو قد استيقظ فى الصباح ممرورا . . يعانى من الملل والضجر . . .

كره الحب الذى كان وتمرد عليه . . . ليستعيد الرجل القديم . . .

وقبل أن يرشف قهوة الصباح . . . طلبها بالهاتف . .

أقرأه صوتها المخملى الناعم تحية الصباح بلهجة من تذكره بأنها قد امتلكته للأبد . . . ضحك فى استمتاع ثم قال :

ـ لن أوافيك فى موعدنا اليوم . .

ـ إذا فإلى الغد . . .

ـ ولن أستطيع غداً . .

ـ إذا فمتى . .؟ . .

ـ وداعاً . .!

وضع سماعة الهاتف وتناول فنجان القهوة . . رشف رشفة ثم ملأ صدره بشهيق عميق . . . وقد أحس بأنه يستطيع أن يفعل أى شىء فى أى وقت .

كلمات من دفتر قديم :

لاتقل الحقيقة للسعداء . . .

ولاتكذب على المحزونين . . .

ففى كلا الحالتين لن يصدقوك!

زاد!

أحفر فى ذاكرتى . . . أنفض عنها غبار الأسفار الطويلة . .

منذ كنت السندباد . . . وخرجت لأعالى البحار . . .

وأكملت الرحلات السبع . . .

وحتى رجعت وألقيت المرساه . . . وحططت رحالى بشط الغريب . .

وأنكرنى أهلى . . .

أبحث عن وجه واحد لاينكرنى . .

وجهاً كان بذات الشط يودعنى . . . يوم بدأت الرحلة . . .

وبمنديل أبيض . . . يلوح لى . . .

حين طوتنى اللجة . . .

عينان لطفلة . . . كلا . . .

ما كانت طفلة . . . كانت تلك الغادة . . . يسربلها شال أخضر . . .

. . . تقف برابية صخرية . . . تحت الشفق الأشقر . . .

لا أذكر غير العينين . . .

فأنبش كل خلايا الذاكرة السمراء . . .

أتعثر فى أزمان منسية . . . أتوقف . . .

أعصر أعماقى . . . استنهض كل ذكائى . . .

أبحث عن مرآتى . . . أتلمس فيها رسومى المفقودة . .

فقديما كنت أصور رحلاتى . . .

أطبعها فى الصفحات البيض . . . أوقعها . . .

أكتب اسمى فوق الوجنتين . . . وأحكى . . .

حين أعود . . .

أجمع كل رفاقى . . . وسُمّارى . . .

أنادمهم وأسائلهم . . .

من كانت؟ . . .

أشحذ منهم اسماً . . . أو بعضاً من صورة . . .

تجعل للرحلة معنى . . . تملأ سلتها ذهباً . . .

أو وهماً . . . أو كسرة خبز . . .



تعطينى لحنا للأشعار . . . حتى أرويها

ويصدق أهلى أن غنائم أسفارى . . . عادت

كنز لا يفنى . . . !

وحكايا كأساطير المدن المسحورة . . .

. . . لكنى عفواً . . .

لا أذكر شيئا . . .

غير العينين . . .

وبعض الكلمات المبتورة . . .

وعصا الترحال المكسورة . . .

ووشماً فوق ذراعى . . .

لوجه الغادة . . . دائرة تتوسطها عينان . .

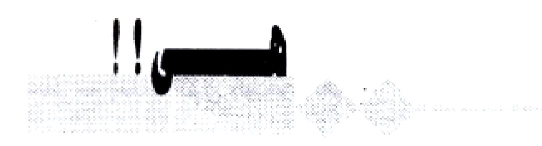
ونقطة دمع محفورة .

كلمات من دفتر قديم :

فـإن تمنعـوا ليلى وتحـمـوا بلادها

علىّ فلن تحـمـوا علىّ القـوافـيـا

«قيس بن الملوح»



« لم يكن يعرفها . . . لم يرها قبل اليوم . . .

ولكنه ما إن فتح الباب ووجدها أمامه حتى أصابته رجفة . . .» .

هكذا تبدأ السطور الأولى فى قصة عادية تتحدث عن موقف غير عادى! وكان ببساطة يريد أن يفجر فى بداية سطوره ما تفجر داخله . . . ذات صيف من أعوام مضت . . .

«عظيم . . . هذا أفضل . . . ذات صيف من أعوام مضت . . . تلك بداية أكثر جمالاً ، وأمسك بالقلم وكتب العبارة التى أعجبته . . . وكاد يسترسل ولكنه توقف . . . بأى ضمير يكتب؟ بضمير المتكلم أم بضمير الغائب؟ الأصدق أن يكتب بضمير المتكلم! فهو وإن كان يكتب قصة سوف تنشر إلا أنه يحكى ما حدث له . . . ولكن . . .

هل الأصدق هو الأجمل؟ . . .

قالوا قديما أن أكذب الشعر هو أجمله . . . والفن يغاير الواقع ليكون أجمل إذاً فالأفضل أن يكتب بضمير الغائب . . .

سيقول «هو» و«هى» . . . أجل . . . لن يعطيها اسماً! وصرخ صوت فى داخله «اكتب أى شىء . . . فقط اكتب» .

ترك العنان للقلم فكتب :

. . . وقف أمامها مسمراً لايدرى ماذا يقول أو يفعل . . . رآها تخطو مع إغفاءة الليل وصحوة الفجر . . . وادهمه احساس جارف . بأنه يألفها وكأنه عايشها عمراً . . . تأكد فيما بعد من ظروف انتقالها الجديد وتأكد من استحالة أن يكون قد لقيها أو رآها فى ماض قريب أو بعيد ولكنه لم يستطع التخلص من يقين آخر بداخله . . . هو يعرفها . . . يأنس إليها . . يربطه بها إحساس من لقى أهله بعد طول فراق . . .

كلا . . أصبح السرد تقليديا!

لماذا لم يلجأ إلى وسائل القص الحديثة؟ . . هناك تيار الشعور مثلاً! . . هناك تقاطع الأزمنة والأمكنة . . . هناك التداعى الحر والاستبطان . .! أمسك بأوراق ما كتب ومزقها . . . لابد أن يأت بجديد! . . تنهد . . ونهض يصنع لنفسه قدحاً من القهوة وراح السؤال يتراقص داخله كما يتراقص اللهب أمامه . . «وهل هناك جديد» . أشعل غليونه . . . وجلس فى ركن الشرفة يرنو إلى البحر . . .

البحر بدوره قديم . . . البحر عجوز هرم . . . صاحب القرون وما فتئ يصاحبها وهو يفعل نفس الأشياء القديمة . . . يتقلب

موجاً . . . ويتموج صخباً . . . ويخرج حنقه زبداً يفور على قمم عبابه . . . هو ممثل عتيق فى مسرحية لاينتهى عرضها ويؤدى فيها نفس الدور . . .

والشمس ممثلة أخرى . . . كذلك الليل . . . والقمر وجوقة النجوم . . . لا جديد . . . حتى هوَ . . . يفعل ما ظل يفعله طوال سنوات وسنوات .

فنجان القهوة . . . والقلم والأوراق . . . والفراغ الذى تركته فى أعماقه حين تركته ورحلت . . .

حنينه إليها أيضاً قديم ولكنه يتجدد مع ميلاد كل يوم . . . وهو الآن لايعرف كيف يبدأ قصة معها . . ولا كيف يسردها . . . ولاكيف ينهيها . . .

نهض إلى مكتبه مرة أخرى . . . وأعد صفحة جديدة . . . وكتب القصة كلمة . . .

«هىّ» . . . فقط . . . ولم يزد كلمة أخرى . . .

كلمات من دفتر قديم . . .

أريد . . أريد . . ولكننى أخاف الطريق

لأنى وحيد . . .

على راحتىّ جماجم يأسى . . .

وفى مقلتىّ بقايا وعود . . .

«صلاح عبد الصبور»

إبحار ...

إليك سأعبر بحر النار . . . وأهتك ستر ضباب الخوف! . . .

إليك أشق عباب اللهب . . . وأصنع من لهفتي قارباً . . . أخوض به لجة المستحيل . . .

ولابد يوماً أراك هناك . . . تلوحين عند شطوط النخيل . . ! فقد رأيت بالأمس في الحلم أني هناك . . .

وجدت حكيماً يشير إلىّ فأقبلت نحوه . . . لثمت إزاراً يحيط بجسد نحيل . . . فهش لي ومسح بيد رفيقة على رأسي . . .

- إلى أين مسيرتك يابنيّ؟ . . .

أجبت وغصة دمع في حلقي : أدور حيث أنا . . . توهمني خطواتي بأني أسير ولكني دوما أعود إلى حيث بدأت . . . حتى تخور قواي فأسقط فوق الرمال . . .

تبحث عما تريد . . . وعيناك لاتراه . . . ولكنه ماثل أمامك



على بعد خطوة . . .

تلفت حولي . . . فماذا وجدت . . .

رأيتك فوق رءوس الزبد . . . تخطرين كعروسة بحر . . .

ورأيتك في قمم الأشجار . . . جمّارة نخل مكنونة تختزن رحيق الصبر . . .

ورأيتك في دالية البستان حبة كرم . . . تقطر في قنينة عطر . .

ورأيتك في نجمة فجر . . . وفراشة ترقص فوق شفاه الزهر . . .

ورأيتك في كفي خط العمر . . .

لكني لم أجدك فسألت حكيمي فقال : لقد أخطأت الشط . . .

وحيد استيقظت صباحاً . . . كان الشوق المبرح يدفعني نحو البحر . . . قال الصياد الشيخ :

- لم تبق هناك قوارب! حطمت العاصفة العاتية كل ما يركب الأمواج . . . حتى الفتيان! . .

وبقيت عجوزاً لا أقوى على الابحار . . .

. . . طائر نورس لطمته الأنواء . . .

ألقته جريحاً فوق الصخر . . .

بجواري جلست إحدى فتيات الماضي! . . . أعطتها الذكرى عنواني . . .

كانت تبتسم في سخرية مرة :

- مازلت تجوب فيافي الأرض بحثاً عن وهم . . .

ـ وهل كنت وهماً؟

ـ ماذا ترانى؟!

ـ أنا لا أرى سواها!

ـ فأين هى؟ . . أليست بعضاً منى . . . وبعضا من غيرى؟ . .

ـ هى لاتشبه واحدة منكن . . . أنتن الأمس . . . وأنا أبحث عن غد! . .

. . . أبحث عنك . . .

أنت إبحارى الأخير . . . وجزيرتى . . . وسفينتى . . .

أنت فنارى . . .

ضوءك يتقلب من أجلى وحدى . . . يرشدنى . . . يهدينى . . . إليك . . .

فلأبحر . . . ولننتظرى هناك عند الشاطئ . . .

فقريبا . . . وقريبا جداً ألفاكى . . . وأغمض جفنين احتضناكى . . .

وأكون أخيراً . . قد أبحرت . .

كلمات من دفتر قديم :

دومى على العهد مادمنا محافظة

فالحر من دان إنصافاً كما دنيا

«ابن زيدون»

مرة!

لم يصدق نفسه حين انغلق باب المصعد ووجده أمامه . . . الرجل الكبير شخصياً . . . رب هذه المؤسسة الضخمة التى يعمل بها . . .

انغلق المصعد عليهما . . . هما فقط! . . . اختلس نظرة سريعة ليتأكد من ملامح الرجل . . .

«هو» بلاشك! ولكن . . . كيف جاء إلى هذا المصعد . . . وله مصعد خاص لايستخدمه غيره . . . يصعد به مباشرة إلى مكتبه الضخم . . . وغمغم لنفسه بدون صوت «ربما تعطّل!» . .

لم يلق إليه الرجل الكبير بالاً . . . فهو غالبا لايعرفه . . . بل قطعاً . . . فهناك غيره عشرات الموظفين أقرب منه لموقع الرجل . . . والدليل على ذلك تلك النظرة العابرة التى رمقه بها حين دخل المصعد خلفه . . .

(. . . نظرة تخترقه إلى ما خلفه ولاتتوقف لحظة عنده . .

لماذا لاتعرفه بنفسك . . . هاهى فرصة سانحة تشرح له فيها شكواك وتطلعه على تلك التصرفات الكريهة لرئيسك المباشر ذلك الرجل الفظ الذى أحاطك بالجحيم من كل جانب . . .)

حين استجمع شجاعته نزف العرق غزيرا من كل مسام جسمه . . . ولكنه لم يتردد . . .

ـ سيدى المدير العام . . . عمت صباحاً!

أومأ له الرجل إيماءة فرساء (لم يعن حتى بالرد عليه) . . . ولكنه واصل . . .

ـ أعمل فى القسم الخامس بالمؤسسة التى تشرف بقيادتك . . .

نفحة نظرة عابرة أخرى ثم أشاح عنه . . .

ـ يضطهدنى رئيسى المباشر لحرصى على صالح العمل ولمحاولتى التصدى لتجاوزاته وانحرافاته . . . إنه رجل شرير لا ضمير له . .

التفت إليه . . . وحدجه نظرة صارمة مستنكرة . . .

ـ لاتنظر لى تلك النظرة ياسيدى استمع فقط لشكواى وستقدر بنفسك مدى حقارة هذا الرجل الذى لايتورع عن سرقة مال المؤسسة! . .

ـ اخرس!

أطلقها الرجل الكبير كعبوة ناسفة انفجرت فى وجهه وجعلته يترنح مرتطما بجدار المصعد . . .

ـ أمثالك من منتهزى الفرص للطعن فى الشرفاء لا مكان لهم فى مؤسستى! .

قال عبارته ثم لاذ بالصمت . . . فكاد الموظف أن يجن . . .

ـ ليس هذا عدلاً . . يجب أن تسمعنى . . عليك أن تعرف أسبابى . .

ـ لن أسمع شيئاً . . . فابتعد أيها الوغد!

فى هذه اللحظة توقف المصعد . . . دون أن يصل لغايته . . . ومرت ثوانى قليلة قبل أن يدرك كلاهما أنه قد تعطل . . .! وراح الرجل الكبير الغاضب بشدة . . . يضغط على زر الاستغاثة ويتحدث فى تليفون المصعد دون أن يجيبه أحد . . . وتقاطرت على جبينه حبات العرق . . وبدأ الهلع يتملكه . . أما الآخر فقد جمد مكانه وفى خاطره تتراقص تساؤلات فكهة : «الرجل الكبير صار فأراً . . . هاهو يتوتر وينتفض ويدق جدران المصعد بيديه طالباً النجدة . . . كم يبدو مضحكا . . . وقد ظهر على حقيقته . . . مجرد فأر فى جلد نمر . . . فلتضحك منه . . لم لاتثأر لكرامتك وقد أهانك نعتك بالوغد . واتهمك بالانتهازية؟» . .

وانطلق يضحك . . حملق فيه الرجل الكبير بذهول . . وهو يغمغم :

ـ تضحك؟ . . ولكننا قد نموت . . .

ـ ستموت مرعوبا . . . وأموت أنا ضاحكاً . . .

وبعد ساعة . . . حين فتح رجال الإنقاذ المصعد . . . كان الرجل الكبير مكوماً على الأرض وقد أصابته نوبة ربما قضت عليه . . . وكان الرجل الآخر يضحك . . . ويضحك . . . ولا أحد يعرف متى كف عن الضحك . .

كلمات من دفتر قديم :

لم يتعلم الإنسان كيف يضحك

إلا حين اخترع المرآة . .

«جورج برناردشو»

حـــدود!

ارتشف تلك الرشفة من كوب العصير المثلج وكأنه يقبل حافة الكأس . . . كانت قطرة واحدة تكفى مثل لثمة على الجبين أو مفرق الشعر . . .

وأحاط القدح الزجاجى الذى غطته ضبابية شفافة تشى بقطع الثلج التى تملؤه . . . بكفيه فى احتضان حميم . . . كانت تلك ليلة من ليالى «حزيران» الساخنة . . . توغل فى تقدمها نحو الفجر . . . الذى بدأ ينبئ عن قرب مقدمة بنسمات غير منتظمة تحمل مع عطرها بعض من رائحة البحر . . .

وكان الحديث بينه وبين صديقه قد اتصل منذ الأمسية ولم ينقطع . . . ظل يدور حول محور واحد . . . كلما بدا أنه يقترب من النهاية كلما قفزت نقطة جديدة تعيده إلى البداية . . . وفى هذه اللحظات التى سادها الصمت إلا من صوت رشفاتهما المتبادلة . . . كانت تقطيبة الجبين تنبئ بالاستعداد لقفزة جديدة . . .

ـ تعرف ماهى غلطتها الكبرى؟ . .

ولم يجب الآخر لأنه كان واثقاً أن صاحبه سيرد على السؤال بنفسه . . .

ـ لقد تصوَّرَت أنها أكثر ذكاء منى! . . وأبادر فأعترف لك أننى من شجعها على هذا التصور!

لأننى رفقاً بها أو مجاملة . . . أو لرغبتى فى ممارسة اللعبة معها . . . تركتها تنتصر فى أول معركة خططها لها ذكاؤها . . . وحين لمحت ابتسامة الفوز فى عينيها ابتسمت بدورى فى داخلى . . أحسست كمن يراقب طفلا يحاول أن يتخابث ليختلس قطعة من الحلوى وهو يظن أن أحدا غيره لايراه

. . . وحين خططت لمعركة أخرى منحتها مرة أخرى متعة الانتصار . . .

ـ وأيضا تركتها فى الثالثة ثم الرابعة! . . . أليس كذلك؟ . . .

أومأ برأسه موافقا وهو يشرد بعينيه إلى التغير الذى بدا فى لون الأفق . . . حيث بهت السواد وخالطته زرقة فجرية رقيقة . . .

ـ جعلتها بعد تكرار انتصاراتها الزائفة تؤمن بذكائها . . . وتتصور بما أننى الطرف الخاسر فى المعركة كل مرة . . . أن ذكاءها يتفوق على ذكائى . . . بل لعلها أيقنت فى أعماقها أننى إنسان سليم النية لا أملك القدرة على المكر أو التخطيط . .

ـ المسكينة!!

ضحك صاحبه فضحك معه . . وحين كفّا عن الضحك . . . بقيت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يستطرد . . .

ـ لا أخفى عليك أننى كنت أستمتع بمراقبتها من وراء ستار . . . وأتابع خطواتها فى التمهيد وإعداد أرض المعركة التى تريد أن تخوضها . . . ثم فى بدء التنفيذ بحذر . . . ثم أسلوبها المباغت فى الهجوم بعد أن تكون قد اطمأنت لنجاحها فى نزع سلاحى . . . وأخيراً إقدامها على الضربة الأخيرة التى تحقق بها ما تريد . . . صرت أتوقع كل خطوة . . . ثم يصدق توقعى . . . حتى مللت وأضجرنى الأمر كله . . . واستقر رأيى على أهمية أن ألقنها درساً تكف بعده عن المحاولة وترتد إلى معرفة حجم ذكائها الحقيقى . . . فانتظرت حتى لاحت فى الأفق بشائر معركة جديدة بدأت تخطط لها . . . كانت هذه المرة بعد ما اكتسبت من ثقة تريد أن تخطو خطوة واسعة . . . ولكنها كانت خطوة خطرة لأنها تتعدى الحدود . . .

ـ أى حدود تقصد؟ . .

ـ أقصد حدود المنطق والاحتمال . . . تلك الحدود التى تنقل من يتعداها إلى الأرض المشتعلة بالنيران لقد تراءه لها ياصاحبى أن تعزف على وتر الغيرة . .! ولم أكن لأسمح بلعبة من هذا النوع . . وعرفت أنها قد رتبت الأمور بحيث أتوهم أن هناك «آخر» . . . وأن هذا الآخر يحبها بجنون وينثر فى طريقها الدر . . . والماس . . . والذهب . . . وأنت تعرف ماذا تريد المرأة من لعبة كهذه . .

ـ طبعاً . . . أن تسارع بالخطوة الأخيرة التى تحسبك متردداً فيها! . .

ـ تماما . . . ولكننى تربصت . . . حتى أقدمت على الخطوة الخطأ . . . حين تعمدت أن أراهما معاً فى تلك الحفل التى أقسمت بإلحاح ـ يشى برغبتها فى ألا أصدقها ـ بأنها لن تذهب إليها . . . ولم أتردد لحظة أسرعت إليهما . . . وواجهتها بأنها قد اختارت . . . وهنأتها على اختيارها . . . ثم انسحبت . . . أما ما بقى فأنت تعرفه جيداً . . .

ـ أصاب الوجوم صاحبه فجأة . . . وقطب حاجبيه . . . ولم يستطع أن يبتلع سؤاله حتى لايغص به . . .

ـ ولكن . . . ياصديقى العزيز . . . إذا كان هذا قد حدث كما تقول . . . فلم تزوجتها؟

. . . كان الفجر قد احمر بميلاد شروق مباغت . . . وساد الصمت بينهما . . . بينما علا صوت البحر .

كلمات من دفتر قديم :

يكذب الرجل وقد يعترف أنه يكذب

وتكذب المرأة وقد تعترف أن الرجل يكذب . . .

خطاب

سيدى المدير العام . . .

ستجد هذه الرسالة فى بريدك الخاص ذات صباح . . . وستقرؤها بينما تحتسى قهوة الصباح التى ترشفها ببطء وتلذذ كما هى عادتك . . . ولكنى أشك فى أن تكمل فنجانك لأنك ستغضب . . . وربما أطحت بقدح القهوة . . . وتناولت قرص ضغط الدم . . . وربما فكرت للحظة فى تمزيق الرسالة أو حرقها . . . ولكنك ستتردد ثم تتراجع . . . فستنتابك رغبة ملحة فى أن تعرف من كتبها خاصة وأنا لن أوقعها باسمى . . .

تقول لنفسك أن من يحجم عن توقيع رسالة كتبها لاشىء غير جبان موتور لايجد فى نفسه الشجاعة لتحمل مسئولية ما يفعل . . . ولن أنكر . . . فأنا بالفعل لا أملك هذا النوع من الشجاعة الذى لابد وأن يدفعك للتنكيل بى واضطهادى وربما تآمرت لفصلى وإلقائى فى الشارع . . .

وقد جبنت طويلا وترددت . . . وكتبت لك عشر رسائل سابقة ولكنى مزقتها جميعا أما هذه المرة فهناك دافع قهرىّ يسيطر على عقلى ومشاعرى ويدفعنى دفعاً لكتابتها وأعتقد أننى لو أحجمت فلن يهنأ لى عيش أو يهدأ لى بال . . .

فلابد من أحد يصدقك القول! تلك مسئولية أخلاقية لا أستطيع الهرب منها . . . وأنا أرى كل يوم صفوفاً من المنافقين تنتظر أمام مكتبك . . . وأسمع عبارات الملق والمراهنة التى يصبونها فى أذنك كل يوم . . . وتتلقاها أنت بوجه مشرق وابتسامة عريضة ما يشير إلى أنك تصدقها . . . وهذه هى الكارثة التى حتمت علىّ أن أكتب إليك لأضع مرآة الحقيقة أمام عينيك ترى فيها نفسك على حقيقتها . . .

أنت ياسيدى وبلا منافس أسوأ رئيس عمل شهدناه طوال سنوات عملنا بهذه المؤسسة . . . ربما كنت رجلاً طيباً . . تلك مسألة أخرى ـ ولكنك لاتفقه شيئاً فى دقائق العمل وخباياه وأسراره ـ وأخطاؤك المتتالية فى إدارة المؤسسة هى حديث الجميع وكلما اجتمع منهم اثنان فهما لايجدا ما يتحدثان فيه إلا نوادر جهلك وغبائك . . . والجميع كما ترى يلقونك بالإجلال والاحترام حتى تدير ظهرك وتبتعد فتبدأ الغمزات واللمزات والضحكات الساخرة والتعليقات المسمومة . . .

وأنت ياسيدى لاتعرف مرءوسيك ولاتجيد الحكم عليهم . . . ودائماً تقرب الفاشل وتكافئه . . . وتبعد القادر المتمكن . . . مقياسك الوحيد هو مدى ما يتمتع به الموظف من قدرة على تملقك وتوفير الخدمات الخاصة لك . . .

كما أنك ياسيدى تفتقر إلى حضور الشخصية . . . والقبول . . لأنك . . ولتعذرنى ثقيل الظل . . . وثرثار . . . ولاتتمتع بأى قدر من الثقافة . . . ومحاولاتك البلهاء للتظرف تدعو للرثاء . . . ولعلك تذكر يوم احتفلت المؤسسة بيوبيلها الذهبى . . . وانبريت لتلقى خطاباً كتبه لك مدير العلاقات العامة . . . فاخطأت فى قراءة معظم سطور الخطاب . . . وعكست المعنى مما أغضب رئيس مجلس الإدارة ودفعه للانسحاب من الحفل . . . فجلست تعوى وتولول وتتهم كل مرءوسيك بالغباء والحماقة . . .

إن أمنية وحيدة تسكن صدر كل مرءوسيك . . . وتتصدر قائمة أحلامهم . . . أن يصبحوا ذات يوم فيقرأوا خبر استقالتك أو إقالتك . . . أو نعيك . . .

سيدى المدير العام . . .

توقف القلم فى يده وقد أحس بالنعاس يثقل أجفانه . . . وقال لنفسه : سأكمله غداً . . .

. . . ونهض إلى فراشه . . . كان يعرف . . . أنه لن يكمله أبداً . . . مثل عشر خطابات سابقه كتبها وأجل تكملتها إلى الغد . . . ولكنه كان يحس بالراحة والسلام . . . عقب كل مرة . . .

ويغمض عينيه وابتسامة عريضة تتخايل على وجهه . .

كلمات من دفتر قديم :

«لاتطعن عدوك فى ظهره
ففى خلفك كثيرون . . .»

مثل صينى



كانت . . .

كانت !!

طرقت باب دنياه ذات صيف! . .

. . . صيفه كان ككل الفصول التى تمر به . . . مجرد أيام تثاءب متسكعة لتضيف إلى سنواته عاماً فعام . . .

فى الشتاء تلزعه البرودة فيتدثر . . . وفى الربيع ترمد عيناه وتخنق الخماسين أنفاسه . . وفى الصيف يعرق نهاراً . . . وفى الخريف تداهمه الكآبة! . .

وكان ذاك الصيف . . . خاوياً . . . لا طعم له . .

حتى ذكريات الأمس البعيد وعطر الزهرة التى صوحت فى مطلع العمر . . . لم يبق منهما شىء لم يعد هناك إلا كتاب يقرأه . . . أو موسيقى يستمع إليها . . . أشياء على حواف الوجدان! لاتنشب أظافرها فى لحم المشاعر . . .

كانت الحياة مجرد صورة مستعارة للأصل المفقود! حتى لقد صارت متعته الوحيدة أن ينسلخ عن ذاته بلعبة نفسية يجيدها لكى يتفرج على نفسه من الخارج ، وأزيد من لعبة المتعة الكاذبة وينسج شرنقته خيطاً خيطاً حتى تظلله كالمغارة . . .

وجاءت . . . تسربت كشعاع شمس . . . كنسمة فجر صينية . . .

بدت فى اللحظة الأولى كطيف عابر . . . يمرق سريعاً ويمضى . . . تاركا خلفه ما تتركه إغفاءة ليلة مؤرقة . . . وبقايا حلم ينكسر فى الأجفان . . . ثم توالدت اللحظة فى اللحظة وتعثرت عقارب الساعة فوقعت فى أسر الصدفة . . .

ووجد الموجة تعلو كلما اقتربت من الشاطئ حتى تغمره ولاتنحسر بل تتجدد حتى يعلو البدر ويسقط . . . مجرد ظل يتأرجح على وجه الماء . . .

جرفته الموجة وأصابه عشق البحر . . .

أعطى قلبه للأصداف . . .

من حبة قلب فى صدفة ولدت لؤلؤة تسقط فى شبكة الصياد . . .

«يالؤلؤتى . . .

ياكنزى الخارج من أعماق الحلم . . .

أدفع عمرى فدية أسرك . . .»

يكتب فى الأوراق الزرقاء بمداد البحر . . .

«كانت عمرى المرجأ منفياً فى فلوات الصبر . .» .

يكتب فى الأوراق الخضراء بمداد الزهر . . .

«كانت ميلادى المتحلق فى رحم الآتى من أيام العمر . . .» .

يكتب فى الأوراق الحمراء بمداد القلب . . .

«كانت فرحة أحزانى الموشومة فوق الصدر» . .

وأخيرا ألقى بالقلم الكذاب . . .

لم يكتب حرفاً . . .

كان الورق سراباً . . .

والكلمات نقشاً فى هباء الصمت . . .

كانت . . . أو ربما كانت . . أو لعلها لم تكن .

كلمات من دفتر قديم :

«أن تواجه الرياح ولاتتقدم غير خطوة

أفضل من أن تخالفها وترجع أميالاً» .

«مثل صينى»

وحدى

وحدى كنت هناك . . .

فى تلك الأرض الحلم! حيث تغيب الشمس فتشرق شمس . . . ويطول نهار الأشياء . . .

حيث يطوف الليل بلمحة برق فيبزغ فجر . . . وتذوب العتمة فى الأرجاء . . .

ويكون لقاء . . .

. . . عند الرابية الخضرة . . . ألقى فوق العشب بكل الأصداف . . . وتجىء العرافة تنظر . . . تكتب فوق الأصداف حروفاً من لغةٍ مجهولة . . . تطلب كفى . . .

تستنطق من خط الحب حكايا لاتروى . . . تسترخى من خط حياتى سرا لايفشى تسألنى أخيراً عن اسمى . . . أنساه . . .

لا أذكر إلا اسمك . . . و . . .!

وحدى كنت هناك . . .

عند الشرفة ذات اللون الأزرق . . وقد جاء صباح . . . والليل يغادر . . . وبقايا العطر تعانق نسمة بحر يستيقظ . . . قد كنت هنا . . . منذ هنيهات . . .

هذا المقعد . . . بوسادته الخضراء . . . كان يضحك . . . مازلت

أراك . . وبدك اليسرى تشير إلىّ . . . أن أقبل . . .

أقبلت . . وأقبلت . . لكنك ما كنت هناك . . .

كنت كسراب . . . كضباب الصبح الرابض فوق الماء . . . يتبدد تحت شعاع الشمس و . . .

وحدى كنت هناك . . .

لم أدرك اسم اللعبة . . . لم أعرف أبداً حجم اللعبة . . . لم أر تلك اليد تخلط بين رحيق الزهر الحلو . . . ومرارة قطر من حنضل . . .

كنت أصدق نفس اليد . . . وأعطيها شفتىّ . . . ترشف ما تلقاه . . .

كنت أصدق . . . وأصدق . . .

ما أكثر ما صدقت!

رفيقه دربى لاتتحول . . . لاتتغير . . . لاتتركنى فى المفترق . . .

لاتتركنى وحدى هناك . . . .



كم كنت غريراً لا أفهم لغة اللعب . . . لا أفهم أن قانون اللعب صريح . . .

«لا يعتنق الصدق طويلا غير الأحمق . .» .

«إن كنت تريد الفوز فطريقك أن تكذب» .

«إن تكذب تحمى ظهرك» .

«وأهم من الكذب أن تدرك كذب الآخرين . . . فلا تصدق» .

لاتصدق . . .

إن صدّقت خسرت اللعبة . . . .

والخاسر لايجمع أحداً حوله . . .

الخاسر يبقى وحده . . .

والآن فهمت بعد فوات الوقت . . . أنى . . .

وحدى كنت هناك . . . وسأبقى وحدى .

كلمات من دفتر قديم :

عش أنت . . . إنى متُّ بعدك . . .

وأطل إلى ما شئت صدك . . .

كانت بقايا للغرام فى مهجتى فختمت بعدك

«بشارة الخورى»

لأنى!

أرهقتنى رحلة الأمس . . . غيرتنى . . . تركت بصماتها الحارقة فى أعماقى . . .

ذهبت حاملاً باقة من الزهر . . . وعدت بكفين يحملان بعضا من ركام . . . بعضاً من رماد . . . .

ملأت جعبتى بأحلامى التى نسجتها مع ثوب العمر ولونتها بزرقة البحر وحمرة الشفق وخضرة الحقول . . . ووشيتها بمنمنمات ربيعية وفراشات تحوم فى سماء صيفية . . . وأعدت راحلتى التى سومتها بسروج الفصول الأربعة . . . ومضيت عند البكور قبل أن تشرق الشمس . . . وقطعت درباً لم أسر به من قبل . . . لفحتنى حرارة تموز اللاهبة . . . وابكتنى أمطار الخريف الحزينة وعصفت بى رياح الشتاء الوحشية . . . وضاع منى الربيع الوحيد الذى أملكه . . .

سقط منى الفصل فى بقعة لا أذكرها . . .

ربما عند حافة جرف . . . أو فى قاع هوة . . . أو لعله ذلك اللص الذى تبعنى كظلى . . . وكان يضحك ساخراً كلما استدرت إليه ورميته بنظرة زاجرة . . . وقد يختفى عند منحنى طريق . . . أو يسبقنى عبر درب فرعى . . . لأجده أمامى يجرى ويلقى بالأحجار والأشواك فى طريقى . . . وكلما ركضت لألحق به راغ منى فى التماعات السراب . . .

وانتصف الدرب مع انتصاف النهار . . .

ولم تنهك بعد قواى . . .

هبطت إلى رقعة ظل جبلية عنه شاطئ البحر . . .

ظمأت ولم تروّ المياه المالحة جوفى . . .

تشققت شفتاى . . . وامتلأت جروحى ببلورات الملح . . .

رأيت قطرات دمائى ترسم خطاً خلفى . . .

ومضيت أتابع سيرى . . . لم أر ذلك اللص . . . وحين راجعت فصولى وجدتها قد نقصت نصلاً . . .

أيقنت بأنى لن أبلغ غاية . . .

فكل الغايات تشترط فصولا أربع . . .

ماذا أفعل بثلاث لاغير؟ . . .

تنقص فى الدرب المحتوم علاقة . . . والرحلة تقترب من شفق قادم . .

يتبعه غسق بارد . . . يتلوه الليل . . . والليل نهاية . .

من يبكى اللبن المسكوب؟! . . .

من يعطى الحسرة نكهتها؟ . .

من يمسح دمع الخيبة . .؟ . .

من يلقى مرثية عمر لم يحيا غير سحابة يوم؟ . .

لا أحد هناك . . .

لا أحد يجيب . . .

حتى الأشياء . . . ما عادت توجد فى الشىء . . .

حتى العودة . . . كانت وهماً . . . فالرحلة لا عودة منها . . .

كلمات من دفتر قديم :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها

فمفترق جاران دارهما العُمُر

«أبو الطيب المتنبى»

حدثتنى

حدثتنى الزهرة ذات صباح . . .
همست فى أذنى بكلمة سر . . .
قالت أن اليوم هو الموعد! . . لم أفهم . . .
ذاكرتى كانت قد غابت عند الفجر . . .
لكن الزهرة تعرف . . . تتذكر . . .
. . . فى اليوم السابق كان لقاء . . .
درجت أقدامنا عند الشاطئ . . .
غاصت فى الرمل الناعم . . .
واغتسلت بمياه البحر . . .
الزهرة مازالت تتحدث . . .
وأنا مازلت أفكر . . .
مازلت أحاول فك الطلسم . . .
هل كان الأمس حقيقة؟ . . . أم أنه لم يأت بعد؟ . .

أذهب وأراجع أوراقى . . .
لا أجد رسالة . . . لا أعثر على يوم له تاريخ الأمس . . .
هل ضاع اليوم؟ . . .
همست لى الزهرة! . . لم أسمع ما قالت . . .
والشمس تطل . . .
تتبخر قطرات كالدمع . . .
تنتفض وريقات الورد . . .
تعلو أصوات العالم . . . وطنين النحل . . .
والزهرة مازالت تتحدث . . .
وأنا مازلت أفكر . . .
مازلت أحاول أن أسمع . . .
لكنى لم أفهم حرفاً . . . غير الكلمات الأولى . . .
اليوم يحين الموعد . . .
موعد من؟ . . . وأين يكون؟ وكيف يحل
الزهرة مازالت تتحدث . . .
وأنا لا أعرف لغة الزهر . . .
. . . .
أفتح قاموس الأشياء . . .
أبحث عن لغة الأحياء . . .
ماذا تقول الزهرة كل صباح؟ . .
. . . .
لاتوجد بالمعجم كلمات . . .
وهناك فقط صفحات بيضاء .

حروف

رسمت حروفى على جبهتى . . .

وشمت بها قدرى المسطور . .

نقشت الكلمة تلو الكلمة فوق جدار الأيام . .

أيامى مازالت تنقص يوماً . . .

كلماتى مازالت تنقص حرفاً . . .

ويضيع المعنى فى فوضى النقصان . . .

غزلت على المغزل أشعارى . . .

أصنع من أحلام الشعر حكاية . . .

أنسج فـوق الأنوال حكاية حـزن أتبـعـهـا بحكاية أفـراح مسلوبة . . .

تبحث أشعارى عن أفراح موعودة . . .

والأفراح سراب . . .

لكن سراب اليوم كان حقيقة . . .

والحقيقة ما نؤمن ونصدق . . . ما نقرأ فى أى كتاب . . .

أبحث عن أسفارى . . .

عن حكاياتى القديمة . . .

لاشىء منها تبقى . . .

لا شىء إلا بعض حروف مطموسة الحواف . . .

ورسوم باهتة الألوان . . .

عينان وخصلة شعر . . .

وزنبقتان . . .

مازالت قطرات الأمس تخضل وريقاتهما . . .

لا أذكر دمعا كانت أم بعض ثمالة . . .

فهناك الأقداح المكسورة . . .

وهناك اللوحة فوق الحائط . . .

تتوسطها عيون تدمع ومحارم مسحوقة . . .

فى طرف المنديل حرفان مطرزان . . .

أولهما حرف من اسمى . . . والحرف الآخر أبلته السنون لكنى أذكر صاحبته . . .



عينان بلون السندس . . . والوجه كبستان الحنطه . . .

وخصلة كستناء تتدلى على جبين ذهبى الكبرياء . . .

بلا أسماء . . .

فأنا دائماً أنسى الأسماء . . .

أعرف فقط بعض الحروف . . .

لا تكمل جملة . . . لاتعطى معنى . . .

قد تبدأ فى سرد رواية . . .

(كانت تمطر ذات مساء . . .) .

ثم يسود الصمت . . . وتغرق الأحرف الخرساء . . . فى بحر هباء . .

كلمات من دفتر قديم :

لا بقومى شَرُفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لابجدودى

«أبو الطيب المتنبى»

بللــــورة...

رأيتها صباح اليوم . .

كانت الظلال تكتنفها قبل ظهور الشمس . . . فلم تظهر إلا حين اخترقها الشعاع . . .

. . . ومضت . . تلألأت . . . وحين غادرها الشعاع . . .

انفصلت البللورة عن غشائها المائى كقطرة ندى . . .

ترك الغشاء يجف تحت حرارة الشمس . . . واحتفظ بالبللورة . . .

أبقاها تحت جفنيه . . .

. . . وابتسم . . .

. . . أما هى فكانت ترمقه بدهشة . . .

ـ ماذا يبرق فى عينيك ؟ . .



أو ترين بريقاً فى عينى ..؟ .

ـ كأنها غلالة دمع يأبى أن ينفرط! . . .

ـ ربما! . .

ـ ولكنك تبتسم . . .

ـ لست حزيناً . . . وليست دموعاً . . . لعلك رأيت انعكاس شعاع الشمس فى عينى! .

ـ ولماذا تطبق نصف جفنيك لينعس طرفك . . .

ـ أترينني ناعس الطرف؟

ضحك . . . ولم تضحك . . .

ـ لست اليوم كما أعرفك! . . . بك شىء لم أره من قبل! . . .

ـ غشينى نفس الاحساس حين وقفت أمام المرآة لأعقد رباط عنقى . . .

ـ بماذا أحسست ! . .

ـ بالبريق الغريب فى عينىّ . . .

ـ لاتسخر منى! . .

ـ لو صارحتك بالحقيقة فستسخرين أنت منى ! . .

ـ إذا فأنت تكذب وهناك حقيقة تخشى أن تصارحنى بها . .

ـ الكذب كلمة مفزعة . . . والأمر أبسط . . .

ـ أريد أن أعرفه لأقدر بساطته . . .

ـ عن البريق الذى يحيرك . . . لقد لمحت قطرة ندى لحظة ميلادها حين اخترقها شعاع الشمس . . .

ـ وبعد؟ . .

ـ لاشىء . . . الأسطورة تقول أن من يلحق بهذه اللحظة . . . يحتفظ إلى الأبد ببلورة الماس . . . وقد فعلت . . .

ـ متعتة بنظرة طويلة . . . أحاطت بوجهه ثم تقلصت حتى تركزت مع ابتسامته العريضة ثم صعدت إلى عينه . . . حيث تترقرق البللورة . . .

نظر هو فى عينيها . . .

لم يكن فى دمعتها شىء يتلألأ . . .

كانت دمعة باردة . . .

ولايتوهج فى الشتاء إلا بريق الثلج . . .

كلمات من دفتر قديم :

ومــا أنا منهم بالعــيش فــيــهم

ولكن مــعــدن الذهب الرّغــام

«أبو الطيب المتنبى»

أسامة أنور عكاشة

- من مواليد طنطا بمحافظة الغربية .
- من أسرة تعيش فى مدينة كفر الشيخ .
- حصل على ليسانس الآداب ـ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية ، فى جامعة عين شمس .
- كتب القصة القصيرة والرواية ونشر فى الدوريات الأدبية حتى منتصف السبعينات .
- تحول إلى كتابة الدراما للتليفزيون من عام ١٩٧٧ .
- كتب للتليفزيون ٢٦ مسلسلا و٢٠ سهرة ، وللسينما ٥ أفلام .
- صدر للكاتب عدة مؤلفات منها : خارج الدنيا ـ أحلام فى برج بابل ـ مقاطع من أغنية قديمة ـ الاسكندرانى ـ ليالى الحلمية ـ الناس اللى فى الثالث

ودار نهضة مصر أصدرت للمؤلف ثلاثة كتب هى :

أوراق مسافر

تباريح خريفية

همس البحر

الفهرس





معك - عزيزى القارئ - أواصل رحلة الوجدان ... أكشف لك فيها عن مشاعرى ... تلك التى تدب تحت الجلد بعيدا عن واقعية « الوعى » .. تنمو وتزهر فى منطقة من النفس لم تكتشف وتبدو كلما خطونا فيها أشبه بالمدن المسحورة .. تحرسها الألغاز والطلاسم ... فالنفس البشرية مثلها مثل « طيبة » القديمة وقد أوصد أبو الهول أبوابها فى وجه « أوديب » لا يسمح له بالولوج إلا أن يجيب على السؤال « اللغز »

لكن لغز أبي الهول أسهل كثيراً وأيسر مقالاً من ألغازنا المستترة فى أعماق العقل الباطن ...

إذاً فلا أطمع فى أكثر من محاولة اقتراب ... دقات فجاى على الأبواب المغلقة لعلها تلقى صدى على الجانب الآخر ... فتوقظ بعضاً من الأسرار الهاجعة هناك فتوارب الباب لينفذ منه خيط من نور ...

اسامة أنور عكاشة




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع